الفصل الحادي عشر:
[غزوة تبوك: «جيش العسرة»]

غزوة تبوك[1] «جيش العسرة»:

اشتهرت هذه الغزوة باسم غزوة تبوك، نسبة إلى مكان عين تبوك، التي انتهى إليها الجيش الإسلامي، وأصل هذه التسمية جاء في صحيح مسلم، فقد روي بسنده إلى معاذ أن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**ستأتون غدًا إن شاء الله عين تبوك، وإنكم لن تأتوها حتى يضحى النهار، فمن جاءها منكم فلا يمس من مائها شيئا حتى آتي**»[2].

وللغزوة اسم آخر، وهو: غزوة العسرة، وقد ورد هذا الاسم في القرآن الكريم حينما تحدث عن هذه الغزوة في سورة التوبة، قال تعالى: ﴿لَقَد تَّابَ اللهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالأَنصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ مِن بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُ بِهِمْ رَؤُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة: ١١٧]. وقد روى البخاري عن أبي موسى الأشعري، قال: أرسلني أصحابي إلى رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أسأله الحملان لهم إذ هم معه في جيش العسرة، وهي غزوة تبوك...، وعنون البخاري لهذه الغزوة بقوله: (باب غزوة تبوك وهي غزوة العسرة[3].

وسميت بهذا الاسم لشدة ما لاقى المسلمون فيها من الضنك، فقد كان الجو شديد الحرارة، والمسافة بعيدة، والسفر شاقًا لقلة المؤونة وقلة الدواب التي تحمل المجاهدين إلى أرض المعركة، وقلة الماء في هذا السفر الطويل والحر الشديد، وكذلك قلة المال الذي يجهز به الجيش وينفق عليه[4]، حتى أن الفاروق عمر بن الخطاب كان يقول: خرجنا مع رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلى تبوك في قيظ شديد فنزلنا منزلا أصابنا فيه عطش شديد حتى ظننا أن رقابنا ستنقطع، حتى إن كان أحدنا يذهب يلتمس الخلاء فلا يرجع حتى يظن أن رقبته تنقطع، وحتى إن

---

(١) تبوك فيقع شمال الحجاز، يبعد عن المدينة ٧٧٨ ميلاً حسب الطريق المعبدة في الوقت الحاضر، وكانت من ديار قضاعة الخاضعة لسلطان الروم آنذاك، انظر: المجتمع الإسلامي للعمري، ص٢٢٩.

(٢) صحيح مسلم (٤/ ١٧٨٤) رقم ٧٠٦.

(٣) البخاري (٥/ ١٥٠) رقم ٤٤١٥.

(٤) الصراع مع الصليبيين لأبي فارس، ص٨٣.

الرجل لينحر بعيره فيعصر فرثه فيشربه ويضعه على بطنه[1].

كما تسمي الغزوة باسم الفاضحة، وسميت بهذا الاسم لأن هذه الغزوة كشفت عن حقيقة المنافقين، وهتكت أستارهم، وفضحت أساليبهم العدائية الماكرة، وأحقادهم الدفينة، ونفوسهم الخبيثة، وجرائمهم البشعة بحق رسول الله والمسلمين[2].

أسباب الغزوة:

هناك أسباب غير مباشرة لغزوة تبوك تتمثل في أمر الله سبحانه وتعالى المسلمين بجهاد أهل الكتاب، كما أمرهم بجهاد المشركين، وخلافا لما حصل مع المشركين الذين لا يقبل منهم إلا الدخول في الإسلام أو أن يأذنوا بقتال، فإن أهل الكتاب لهم حق الاحتفاظ بدينهم إذا ما اعترفوا بالسيادة لدولة الإسلام وأدّوا الجزية عن يد وهم صاغرون. قال تعالى: ﴿قَاتِلُوا الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَلا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلا يُحَرِّمُونَ ما حَرَّمَ اللهُ وَرَسُولُهُ وَلا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صاغِرُونَ﴾ [التوبة: ٢٩].

وهكذا فقد كانت غزوة تبوك استجابة إيمانية لفريضة الجهاد حيث كان الروم أقرب الناس إلى ديار الإسلام ولذلك فإنهم أولى الناس بالدعوة.[3] وقد قال تعالى: ﴿يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُمْ مِنَ الْكُفَّارِ وَلْيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾ [التوبة: ١٢٣][4]، فبعد القضاء على الوثنية في جزيرة العرب، وإجلاء يهود من المدينة وغيرها، كان على المسلمين أن يقاتلوا أهل الكتاب من النصارى الذين كانوا يقطنون على المشارف الشمالية الغربية من جزيرة العرب، حيث كانت المنطقة التي توجه إليها الرسول في هذه الغزوة من ديار قضاعة وهي خاضعة لسلطان الإمبراطورية البيزنطية (الروم)[5].

وهناك أسباب مباشرة دعت النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بالتعجيل والقيام بهذه

---

(١) مجمع الزوائد، ٦/ ١٩٤.

(٢) شرح المواهب اللدنية، ٣/ ٦٢، الصرع مع الصليبيين، ص٨٤.

(٣) يقول الحافظ ابن حجر «فعزم رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على قتال الروم، لأنهم أقرب الناس إليه وأولى الناس بالدعوة لقربهم إلى الإسلام وأهله» انظر، ابن كثير، البداية والنهاية، ٢/ ٥.

(٤) الطبري، التفسير، ١١/ ٧١.

(٥) موسوعة نضرة النعيم في مكارم أخلاق الرسول الكريم، ١ / ٣٨٧.

الغزوة، وتمثلت في الأنباء التي وصلت للنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من الأنباط الذين يأتون بالزيت من الشام إلى المدينة أن الروم جمعت جموعا وأجلبت معهم لخم وجذام وغيرهم من مستنصرة العرب، وجاءت في مقدمتهم إلى البلقاء[1] فأراد النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن يغزوهم قبل أن يغزوه[2].

وكانت الأنباء تترامي إلى المدينة بإعداد الرومان؛ للقيام بغزوة حاسمة ضد المسلمين، حتى كان الخوف يتسورهم كل حين، لا يسمعون صوتاً غير معتاد إلا ويظنونه زحف الرومان. ويظهر ذلك جلياً مما وقع لعمر بن الخطاب، فقد كان النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ آلى من نسائه شهراً في هذه السنة - ٩هـ - وكان هجرهن واعتزل عنهن في مشربة له، ولم يفطن الصحابة إلى حقيقة الأمر في بدايته، فظنوا أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ طلقهن، فسري فيهم الهم والحزن والقلق. يقول عمر بن الخطاب - وهو يروي هذه القصة: وكان لي صاحب من الأنصار إذا غبت أتاني بالخبر، وإذا غاب كنت آتية أنا بالخبر - وكانا يسكنان في عوالي المدينة، يتناوبان إلى النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - ونحن نتخوف ملكاً من ملوك غسان ذكر لنا أنه يريد أن يسير إلينا، فقد امتلأت صدورنا منه، فإذا صاحبي الأنصاري يدق الباب، فقال: افتح، افتح، فقلت: جاء الغساني؟ فقال: بل أشد من ذلك، اعتزل رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أزواجه..."[3].

وفي لفظ آخر - أنه قال -: وكنا تحدثنا أن آل غسان تنعل النعال لغزونا، فنزل صاحبي يوم نَوْبَتِهِ، فرجع عشاء، فضرب بابي ضرباً شديداً وقال: أنائم هو؟ ففزعت، فخرجت إليه، وقال: حدث أمر عظيم. فقلت: ما هو؟ أجاءت غسان؟ قال: لا بل أعظم منه وأطول، طلق رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ نساءه..[4].

وهذا يدل على خطورة الموقف، الذي كان يواجهه المسلمون بالنسبة إلى الرومان، ويزيد ذلك تأكداً ما فعله المنافقون حينما نقلت إلى المدينة أخبار إعداد الرومان، فبرغم ما رآه هؤلاء المنافقون من نجاح رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في كل الميادين، وأنه لا يوجل من سلطان على ظهر الأرض، بل يذيب كل ما يعترض في طريقه من عوائق - برغم هذا كله - طفق هؤلاء المنافقون يأملون في تحقق

(١) البلقاء: هي كورة من أعمال دمشق بين الشام ووادي القرى عاصمتها عمان.
(٢) الطبقات الكبرى لابن سعد، ٢/ ١٦٥.
(٣) البخاري، الفتح، ٨ (٤٩١٣).
(٤) البخاري، كتاب النكاح، باب موعظة الرجل ابنته، ٦/ ١٨٠، رقم ٥١٩١.

ما كانوا يخفونه في صدورهم، وما كانوا يتربصونه من الشر بالإسلام وأهله. ونظراً إلى قرب تحقق آمالهم أنشؤوا وكرة للدس والتآمر، في صورة مسجد، وهو مسجد الضِّرَار، أسسوه كفراً وتفريقاً بين المؤمنين وإرصاداً لمن حارب الله ورسوله، وعرضوا على رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن يصلي فيه، وإنما مرامهم بذلك أن يخدعوا المؤمنين فلا يفطنوا ما يؤتي به في هذا المسجد من الدس والمؤامرة ضدهم، ولا يلتفتوا إلى من يرده ويصدر عنه، فيصير وكرة مأمونة لهؤلاء المنافقين ولرفقائهم في الخارج، ولكن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أخر الصلاة فيه - إلى قفوله من الغزوة - لشغله بالجهاز، ففشلوا في مرامهم وفضحهم الله، حتى قام الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بهدم المسجد بعد القفول من الغزو، بدل أن يصلي فيه[1].

الإنفاق في هذه الغزوة وحرص المؤمنين على الجهاد ومواقف المنافقين:

ثم دعا النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الصحابة إلى الإنفاق على هذه الغزوة نظرا لكثرة المشاركين فيها، وبعد المسافة التي كان على الجيش أن يقطعها، ووعد المنفقين بعظيم الأجر من الله سبحانه وتعالى، فسارع أغلب الصحابة إلى المشاركة في توفير الأموال المطلوبة كل حسب مقدرته.

وكان عثمان بن عفان أكثر المنفقين على جيش العسرة استجابة لقول النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ «**من جهّز جيش العسرة فله الجنّة**»[2]، فيقول عبدالرحمن بن حُباب: شهدت النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وهو يحث على جيش العسرة، فقام عثمان بن عفان فقال: يارسول الله عليَّ مائة بعير[3] بأحلاسها[4] وأقتابها[5] في سبيل الله، ثم حضّ[6] على الجيش فقام عثمان بن عفان فقال: يارسول الله عليَّ مائتا بعير بأحلاسها وأقتابها في سبيل الله، ثم حض على الجيش فقام عثمان بن عفان فقال: يارسول الله عليّ ثلثمائة بعير بأحلاسها وأقتابها في سبيل الله، فأنا رأيت رسول الله ينزل عن المنبر وهو يقول: «**ما على عثمان ما عمل بعد هذه، ما على عثمان ما**

---

(١) الرحيق المختوم، ص٤١٩.

(٢) البخاري، كتاب الفضائل، باب مناقب عثمان (٤/ ٢٤٣).

(٣) البعير: ما صلح للركوب والحمل من الإبل، وذلك إذا استكمل أربع سنوات، ويقال للجمل والناقة.

(٤) الحِلْسُ، بالكسْرِ: كُلُّ شيءٍ وَلِيَ ظهرَ البعيرِ والدَّابَّةِ تحتَ الرَّحْلِ والسَّرْجِ.

(٥) القتب: هو الرحل الذي يوضع حول سنام البعير تحت الراكب هو بمنزلةِ المِرْشَحَةِ تكون تحتَ اللِّبْدِ. انظر، تاج العروس من جواهر القاموس، ١٥/ ٥٤٦.

(٦) الحض: الحثُّ بقوة.

عمل بعد هذه» [1].

وعن عبدالرحمن بن سمرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: جاء عثمان بن عفان إلى النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بألف دينار في ثوبه حين جهز النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ جيش العسرة، قال: فجعل النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقلبها بيده ويقول: «**ماضرّ ابن عفان ماعمل بعد اليوم يرددها مراراً**» [2].

وأما عمر فقد تصدق بنصف ماله وظن أنه سيسبق أبا بكر بذلك، وهذا الفاروق يحدثنا بنفسه عن ذلك حيث قال: أمرنا رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يوماً أن نتصدق، فوافق ذلك مالا عندي، فقلت اليوم أسبق أبا بكر إن سبقته يوما، فجئت بنصف مالي، فقال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**ما أبقيت لأهلك؟**» قلت: مثله، قال: وأتى أبو بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بكل ماعنده، فقال له رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**ما أبقيت لأهلك؟**» قال: أبقيت لهم الله ورسوله، قلت: لا أسابقك إلى شيء أبداً [3].

وروي أن عبدالرحمن بن عوف أنفق ألفي درهم، وهي نصف أمواله لتجهيز جيش العسرة [4].

وكانت لبعض الصحابة نفقات عظيمة، كالعباس بن عبد المطلب، وطلحة بن عبيد الله، ومحمد بن مسلمة، وعاصم بن عدي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ [5].

وفي مسارعة الموسرين من الصحابة إلى البذل والإنفاق دليلاً على ما يفعله الإيمان في نفوس المؤمنين من مسارعة إلى فعل الخير ومقاومة لأهواء النفس وغرائزها مما تحتاج إليه كل أمة لضمان النصر على أعدائها، وخير مايفعله المصلحون وزعماء النهضات هو غرس الدين في نفوس الناس غرساً كريماً [6].

ولا شك في أن عددا آخر من الصحابة قد ساهموا في تغطية بقية النفقات كل على قدر طاقته، والدليل على ذلك أن فقراء المسلمين قدموا ما قدروا عليه من النفقة، رغم بساطته وقلته، على استحياء منهم فقد جاء أحدهم بصاع من تمر،

---

(١) سنن الترمذي، مناقب (٥/ ٦٢٥ - ٦٢٦) رقم ٣٧٠٠.
(٢) سنن الترمذي، المناقب (٥/ ٦٢٦) رقم ٣٧٠٢؛ مسند أحمد (٥/ ٦٣).
(٣) سنن أبي داود، الزكاة (٢/ ٣١٢ - ٣١٣) رقم ١٦٧٨.
(٤) السيرة في ضوء المصادر الأصلية، ص٦١٦.
(٥) مغازي الواقدي، ٣/ ٣٩١.
(٦) السباعي، السيرة النبوية دروس وعبر، ص١٦١.

وجاء آخر بنصف صاع منه، مما عرضهم لسخرية ولمز المنافقين، فأنزل الله تعالى قوله الكريم: ﴿الَّذِينَ يَلْمِزُونَ الْمُطَّوِّعِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فِي الصَّدَقَاتِ وَالَّذِينَ لا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ اللهُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [التوبة: ٧٩].

وقالوا: ما أعطى بن عوف هذا إلا رياء، فكانوا يتهمون الأغنياء بالرياء ويسخرون من صدقة الفقراء [١].

ولقد حزن الفقراء من المؤمنين لأنهم لا يملكون نفقة الخروج إلى الجهاد فهذا عُلَبَة بن زيد أحد البكائين صلى من الليل وبكى، وقال: اللهم إنك قد أمرت بالجهاد، ورغبت فيه، ولم تجعل عندي ما أتقوى به مع رسولك، وإني أتصدق على كل مسلم بكل مظلمة أصابتني بها في جسد أو عرض، ثم أصبح مع الناس، فقال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ «أين المتصدق هذه الليلة» فلم يقم أحد، ثم قال: «أين المتصدق فليقم» فقام إليه فاخبره، فقال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «أبشر، فو الذي نفسي بيده لقد كتبت في الزكاة المتقبلة». [٢].

فهذه إشارات مهمة.. فالفاقة ليست عُذراً للتخلّف عن ركب السائرين، ولا القعود عن مشاركة العاملين، بل الاحتجاج بالفقر والتعذّر به عن خدمة هذا الدين ذنب يُضاف إلى ذنوب صاحب العُذر.

وفي هذه القصة وماجرى فيها آيات من الإخلاص، وحب الجهاد لنصرة دين الله وبثّ دعوته في الآفاق وفيها من لطف الله بضعفاء المؤمنين الذين يعيشون في حياتهم عيشة عملية[٣].

وهذا واثلة بن الأسقع نتركه يحدثنا عن قصته: ... عندما نادى رسول الله في غزوة تبوك، خرجت إلى أهلي، فأقبلت - وقد خرج أول صحابة رسول الله - فطفقت في المدينة أنادي: ألا من يحمل رجلاً له سهمه فإذا شيخ من الأنصار، فقال: لنا سهمه على أن نحمله[٤] عقبة، وطعامه معنا؟ فقلت: نعم، قال فسر على بركة الله، فخرجت مع خير صاحب حتى أفاء الله علينا[٥]، فأصابني قلائص[٦]،

(١) السيرة النبوية في ضوء المصادر الأصلية، ص٦١٦ - ٦١٧.
(٢) زاد المعاد في هَدْي خير العباد، ٣/ ٤٦٣، العمري، المجتمع المدني، ص٢٣٥.
(٣) صادق عرجون، محمد رسول الله، ٤/ ٤٤٣.
(٤) عقبة: أي بالتعاقب.
(٥) كان واثلة بن الأسقع أحد أفراد سرية خالد بن الوليد في دومة الجندل.
(٦) قلائص: إبل.

فسقتهن حتى أتيته ، فخرج ، فقعد على حقيبة من حقائب إبله ، ثم قال: سقهن مدبرات ثم قال: سقهن مقبلات ، فقال: ما أرى قلائصك إلا كراماً: إنما هي غنيمتك التي شرطت لك ، قال: خذ قلائصك يا ابن أخي ، فغير سهمك أردنا[1] .

وهكذا تنازل واثلة في بداية الأمر عن غنيمته ليكسب الغنيمة الأخروية ، أجراً وثواباً يجده عند الله يوم لقائه ، وتنازل الأنصاري عن قسم كبير من راحته ليتعاقب وواثلة على راحلته ويقدم له الطعام مقابل سهم آخر هو الأجر والثواب .

إنها مفاهيم تنبع من المجتمع الذي تربى على كتاب الله وسنة رسوله ، لها نفس الخاصية في الإضاءة وتحمل نفس البريق ، متمم بعضها لبعضها الآخر[2] .

وجاء الأشعريون يتقدمهم أبو موسى الأشعري يطلبون من النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن يحملهم على إبل ليتمكنوا من الخروج للجهاد فلم يجد مايحملهم عليه حتى مضى بعض الوقت فحصل لهم على ثلاثة من الإبل[3] .

وبلغ الأمر بالضعفاء والعجزة ممن أقعدهم المرض أو النفقة عن الخروج إلى حد البكاء شوقاً للجهاد وتحرجاً من القعود حتى نزل فيهم قرآن: ﴿لَيْسَ عَلَى الضُّعَفَاءِ وَلا عَلَى الْمَرْضَى وَلا عَلَى الَّذِينَ لا يَجِدُونَ مَا يُنْفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا لله وَرَسُولِهِ مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِنْ سَبِيلٍ والله غَفُورٌ رَحِيمٌ * وَلا عَلَى الَّذِينَ إِذَا مَا أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لا أَجِدُ مَا أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوْا وَأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ حَزَنًا أَلا يَجِدُوا مَا يُنْفِقُونَ ،﴾ [التوبة: ٩١ - ٩٢] .

إنها صورة مؤثرة للرغبة الصحيحة في الجهاد على عهد رسول الله ، وما كان يحسه صادقو الإيمان من ألم إذا ما حالت ظروفهم المادية بينهم وبين القيام بواجباته ، وكان هؤلاء المعوزون وغيرهم ممن عذر الله لمرض أو كبر سن أو غيره يسيرون بقلوبهم مع المجاهدين[4] وهم الذين عناهم رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عندما قال: «**إن بالمدينة أقواماً ما سرتم مسيراً ولا قطعتم وادياً إلا كانوا معكم**» قالوا: يا رسول الله ، وهم بالمدينة؟ قال: «**وهم بالمدينة حبسهم العذر**»[5] .

---

(١) أبي داود في سننه ، ٣/ ٥٦ ، حديث رقم ٢٦٧٦ ، الطبراني في معجمه الكبير ، ٢٢/ ٨١ ، حديث رقم ١٩٦ .

(٢) معين السيرة ، ص٤٥٣ .

(٣) المجتمع المدني ، ص٢٣٦ .

(٤) السيرة النبوية في ضوء المصادر الأصلية ، ص٦١٨ .

(٥) البخاري ، كتاب المغازي ، رقم ٤٤٢٣ .

موقف المنافقين من غزوة تبوك:

عندما أعلن الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ النفير ودعا إلى الإنفاق في تجهيز هذه الغزوة، ظهر المنافقون بوجههم الحقيقي، فلما أرسل النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلى القبائل يستنفرها بالخروج مع الجيش الإسلامي من المدينة إلى تبوك وقد أشار القرآن الكريم إلى إعلان النفير فقال تعالى: ﴿ يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ما لَكُمْ إِذا قِيلَ لَكُمُ انْفِرُوا فِي سَبِيلِ اللهِ اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ أَرَضِيتُمْ بِالْحَياةِ الدُّنْيا مِنَ الْآخِرَةِ فَما مَتاعُ الْحَياةِ الدُّنْيا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ ﴾ [التوبة: ٣٨].

وكان النفير المعلن أمرا واجبا على الجميع تنفيذه والالتزام به؛ فقد طالبهم القرآن الكريم أن ينفروا شبابا وشيوخا أغنياء وفقراء وأن يكون جهادهم جميعا بالأموال والأنفس، فقال تعالى: ﴿ انْفِرُوا خِفافاً وَثِقالًا وَجاهِدُوا بِأَمْوالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللهِ ذلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ [التوبة: ٤١].

ولما أن أمر الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أصحابه بالتهيؤ لغزو الروم كان ذلك في زمان من عسرة الناس، وشدة من الحر، وجدب من البلاد، وحين طابت الثمار، والناس يحبون المقام في ثمارهم وظلالهم، ويكرهون الشخوص على الحال من الزمان الذي هم عليه، وذلك ما أشارت إليه الآية الكريمة: ﴿ لَوْ كانَ عَرَضاً قَرِيباً وَسَفَراً قاصِداً لَاتَّبَعُوكَ وَلكِنْ بَعُدَتْ عَلَيْهِمُ الشُّقَّةُ وَسَيَحْلِفُونَ بِاللهِ لَوِ اسْتَطَعْنا لَخَرَجْنا مَعَكُمْ يُهْلِكُونَ أَنْفُسَهُمْ واللهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكاذِبُونَ ﴾ [التوبة: ٤٢] (١)، وكان رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قلما يخرج في غزوة إلا كنّى عنها ويخبر أنه يريد غير الوجه الذي يصمد له، إلا ما كان من غزوة تبوك فإنه بيّنها للناس، لبعد الشقة، وشدة الزمان، وكثرة العدو الذي يصمد له، ليتأهب الناس لذلك أهبته، فأمر الناس بالجهاز، وأخبرهم أنه يريد الروم» (٢).

ولقد نجم النفاق في المدينة واستعلن بشأن هذه الغزوة، «وقال قوم من المنافقين بعضهم لبعض: لا تنفروا في الحر، زهادة في الجهاد، وشكّا في الحق، وإرجافا برسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ»(٣)، فأنزل الله تعالى فيهم: ﴿ وَقالُوا لا تَنْفِرُوا فِي الْحَرِّ قُلْ نارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا لَوْ كانُوا يَفْقَهُونَ * فَلْيَضْحَكُوا قَلِيلًا وَلْيَبْكُوا كَثِيراً جَزاءً بِما كانُوا يَكْسِبُونَ ﴾ [التوبة: ٨١ - ٨٢].

---

(١) الطبري - تفسير ١٤/ ٢٧٢.
(٢) ابن هشام - السيرة ٣/ ٥١٦.
(٣) ابن هشام - السيرة ٣/ ٥١٧.

وحين عرض النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على الجد بن قيس أحد بني سلمة المشاركة في جهاد الروم، اعتذر عن ذلك تحت ستار الخوف من الفتنة بسبب شدة ولعه بالنساء وقال: «وإني أخشى إن رأيت نساء بني الأصفر ألا أصبر»، فأعرض عنه رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وقال: «قد أذنت لك»، وفيه نزلت الآية: ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ ائْذَنْ لِي وَلا تَفْتِنِّي أَلا فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ﴾ [التوبة: ٤٩].

وكما اعتذر الجد بن قيس كذبا ونفاقا، فقد بادر عدد من المنافقين إلى تقديم أعذار كاذبة للنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لكي يأذن لهم بالتخلف عن الغزوة، ولذلك نزلت الآية: ﴿عَفَا اللهُ عَنْكَ لِمَ أَذِنْتَ لَهُمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَتَعْلَمَ الْكَاذِبِينَ﴾ [التوبة: ٤٣].

لم يقتصر النفاق على من نافق من أهل المدينة بل إنه امتد إلى البادية حولها، قال تعالى: ﴿وَمِمَّنْ حَوْلَكُمْ مِنَ الأَعْرَابِ مُنَافِقُونَ وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ مَرَدُوا عَلَى النِّفَاقِ لا تَعْلَمُهُمْ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ سَنُعَذِّبُهُمْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَى عَذَابٍ عَظِيمٍ﴾ [التوبة: ١٠١].

وحيث إن المنافقين من الأعراب، وهم أقسى قلوبا وأكثر جفوة وأقل علما بالأحكام والسنن، فإنهم أشد كفرا ونفاقا من منافقي أهل المدينة، كما وصفهم القرآن الكريم: ﴿الأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْراً وَنِفَاقاً وَأَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُوا حُدُودَ ما أَنْزَلَ اللهُ عَلَى رَسُولِهِ﴾ [التوبة: ٩٧] (١).

لقد كانت غزوة تبوك منذ بداية الإعداد لها مناسبة للتمييز بين المؤمنين والمنافقين، وضحت فيها الحواجز بين الطرفين ولم يعد هناك أي مجال للتستّر على المنافقين أو مجاملتهم بل أصبحت مجابهتهم أمرا ملحا بعد أن عملوا كل ما في وسعهم لمجابهة الرسول والدعوة، وتثبيط المسلمين عن الاستجابة للنفير الذي أعلنه الله تعالى والرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ والذي نزل به القرآن الكريم، بل أصبح الكشف عن نفاق المنافقين، وإيقافهم عند حدهم واجبا شرعيا. فحين بلغ النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن أعدادا من المنافقين كانوا يجتمعون في بيت سويلم اليهودي يثبطون الناس عن الغزوة، أرسل النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إليهم من أحرق عليهم بيت سويلم (٢).

وهذا يدل على مراقبة المسلمين الدقيقة ومعرفتهم بأحوال المنافقين واليهود،

(١) الطبري - تفسير ١١/ ٣.
(٢) ابن هشام، السيرة، ٤/ ٢١٧ - ٢١٨.

فقد كانت عيون المسلمين يقظة تراقب تحركات اليهود والمنافقين واجتماعاتهم وأوكارهم، بل كانوا يطلعون فيها على أدق أسرارهم واجتماعاتهم وما يدور فيها من حبك المؤامرات وابتكار أساليب التثبيط واختلاف الأسباب الكاذبة لإقناع الناس بعدم الخروج للقتال وقد كان علاج رسول الله لدعاة الفتنة وأوكارها حازماً حاسماً، إذ أمر بحرق البيت على من فيه من المنافقين، وأرسل من أصحابه من ينفذه ونفذ بحزم وهذا منهج نبوي كريم يتعلم منه كل مسؤول في كل زمان ومكان كيف يقف من دعاة الفتنة ومراكز الإشاعات المضللة التي تلحق الضرر بالأفراد والمجتمعات والدول لأن التردد في مثل هذه الأمور يعرض الأمن والأمان إلى الخطر وينذر بزوالها[1].

وحين ابتنى المنافقون مسجداً لهم ليجتمعوا فيه مكايدة للمسلمين وتفريقاً لاجتماعهم ووحدتهم وطلبوا من النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن يصلي فيه، نهاه الله تعالى عن ذلك وسماه (مسجداً ضراراً) فقال جل شأنه: ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِداً ضِراراً وَكُفْراً وَتَفْرِيقاً بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصاداً لِمَنْ حارَبَ الله وَرَسُولَهُ مِنْ قَبْلُ وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنا إِلَّا الْحُسْنى والله يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكاذِبُونَ * لا تَقُمْ فِيهِ أَبَداً لَمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوى مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ فِيهِ رِجالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَطَهَّرُوا والله يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ﴾ [التوبة: ١٠٧ - ١٠٨][2].

وجاء المعذرون من الأعراب فاعتذروا إليه، فلم يعذرهم الله تعالى[3].

وهكذا فقد تخلف عن هذه الغزوة كثير من الأعراب والمنافقين، وعدد قليل من الصحابة من أهل الأعذار، وثلاثة من الصحابة تخلفوا دون أن يكون لهم عذر[4].

إعلان النفير وتعبئة الجيش:

سارع المؤمنون إلى الالتحاق بهذه الغزوة التي كشف النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عن وجهتها كما أسلفنا لكي يستعدوا لذلك، ولم يهابوا المشاق التي تنتظرهم بسبب بعد المسافة والحر الشديد وقلة المئونة، كما لم تفتنهم طيبات الحياة الدنيا ورغد العيش والأمن الذي يوفره لهم البقاء في المدينة.

---

(١) الصراع مع الصليبيين، ص١٢١.
(٢) الطبري، التفسير، ١٤/ ٤٦٨ - ٤٧٥.
(٣) ابن هشام، السيرة، ٣/ ٥١٨.
(٤) وهم كعب بن مالك ومرارة بن الربيع وهلال بن أمية، وسوف يرد تفصيل أمرهم فيما بعد.

ولما خرج رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بجيشه من المدينة ضرب معسكره بالجرف عند ثنية الوداع لكي يتلاحق أفراد الجيش به [1]، واستعمل على المدينة محمد بن مسلمة الأنصاري [2]، وخلف على أهله علي بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ حيث أمره بالإقامة فيهم. وقد أرجف به المنافقون وقالوا: «ما خلفه إلا استثقالا له وتخففا منه»، ليشيعوا الفرقة والفتنة بين النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وخاصة أصحابه وأهل بيته، وقد أحزن ذلك علياً وأدخل الغم على نفسه لما بلغه ذلك فأخذ عليّ سلاحه وخرج من المدينة حتى أتى رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وهو نازل بالجرف، فأخبره بما قاله المنافقون عنه [3]، وقال: يا رسول الله تخلفني في النساء والصبيان؟، وقد كذّب النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مقولة المنافقين وقال لعلي: «**ولكنّي خلّفتك لما تركت ورائي فارجع فاخلفني في أهلي وأهلك، أفلا ترضى يا علي أن تكون منّي بمنزلة هارون من موسى، إلّا إنّه لا نبيّ بعدي**» [4] فرجع علي إلى المدينة [5].

وكان استخلاف علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في أهله باعتبار قرابته ومصاهرته، فكان استخلافه في أمر خاص، وهو القيام بشأن أهله، وكان استخلاف محمد بن مسلمة الأنصاري في الغزوة نفسها استخلافاً عامًّا، فتعلق بعض الناس بأن استخلاف علي يشير إلى خلافته من بعده، ولا صحة لهذا القول؛ لأن خلافته كانت في أهله خاصة [6].

فلما خرج رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ضرب عسكره ثنية الوداع وضرب عبد الله بن أبي ومن معه على جده عسكره أسفل منه، نحو ذباب [7]، وكان فيما يزعمون ليس بأقل العسكرين، فلما سار رسول الله تخلف عنه عبد الله بن أبي

---

(١) البخاري، الصحيح، الفتح حديث ٤٤١٦، مسلم، الصحيح، ١٨٧٠ - ١٨٧١، حديث ٢٤٠٤.

(٢) ابن هشام، السيرة، ٣/ ٥١٩.

(٣) ابن هشام، السيرة، ٣/ ٥١٩ - ٥٢٠.

(٤) وردت الحادثة، في البخاري - الصحيح ٥/ ٧، وفي مواضع أخرى منه، كما أوردها مسلم في صحيحه، ٧/ ١٢٠ - ١٢١ مع بعض التعديل لبعض المفردات، فقد جاء فيه: «أما ترضى» بدلا من «أفلا»، وأسقط اسم علي من وسط الحديث. وانظر: أحمد، فضائل الصحابة.

(٥) زاد المعاد، ٣/ ٥٣٠، موسوعة نضرة النعيم في مكارم أخلاق الرسول الكريم، ١ / ٣٩٠.

(٦) صور وعبر من الجهاد النبوي في المدينة، ص٤٦٦، ٤٦٧.

(٧) جبل قرب المدينة.

فيمن تخلف من المنافقين وأهل الريب[1].

وأراد أن يوهن قلوب المؤمنين فرجع قائلا: "يغزو محمد بني الأصفر مع جهد الحال والحر والبلد البعيد، أيحسب محمد أن قتال بني الأصفر اللعب؟ وقال: والله لكأني أنظر إلى أصحابه غدا مقرنين في الحبال"[2].

وهذا الفعل ليس بغريب عليهم، فقد سبق أن فعلوه في غزوة أحد كما هو معلوم.

خرج الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على طريق التصميم والجهاد وحوله المسلمون في ثلاثين ألف جندي[3]، وكان معهم عشرة آلاف فرس[4]، وكان لواء الجيش الأعظم إلى أبي بكر الصديق، ورايته العظمى إلى الزبير بن العوام رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ورواية الأوس إلى أسيد بن حضير، ورواية الخزرج إلى أبي دجانة، وأمر كل بطن من الأنصار أن يتخذ لواء[5]، واستعمل رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على حراسة تبوك من يوم قدم إلى أن رحل منها عباد بن بشر، فكان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يطوف في أصحابه على العسكر[6]، وكان دليل رسول الله في هذه الغزوة علقمة بن الفغواء الخزاعي، فقد كان من أصحاب الخبرة والكفاءة في معرفة طريق تبوك[7].

وقد سلك الجيش طريق الشام وفي الطريق إلى تبوك لحق بالجيش أبو خيثمة مالك بن قيس وكان من الأنصار بعد أن كان تخلف بالمدينة[8]، وكان من قصته أنه رجع بعد أن سار رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أيامًا إلى أهله في يوم حارّ، فوجد امرأتين له في عريشين لهما في حائطه[9] قد رشت كل واحدة منهما عريشها،

---

(١) ابن هشام، السيرة، ٣/ ٥١٩.

(٢) انظر: المقريزي، إمتاع الأسماع، ١ / ٤٥٠، ابن هشام، السيرة النبوية، ٢ / ٥٢٥.

(٣) البخاري، الصحيح، فتح الباري، ٨/ ١١٣، مسلم، الصحيح، ٨/ ١١٢ (حديث ٢٧٦٩)، ابن حجر، فتح الباري، ٨/ ١١٨، وما ورد لا يتعارض مع ما أورده ابن إسحاق والواقدي.

(٤) الواقدي، المغازي، ٣/ ٩٩٦، برواية زيد بن ثابت، ابن سعد، الطبقات، ٢/ ١٦٦.

(٥) المغازي، ٣/ ٩٩٦، الطبقات الكبرى لابن سعد، ٢/ ١٦٦.

(٦) سبل الهدى والرشاد، ٥/ ٦٥٢، الصراع مع الصليبيين، ص٩٩.

(٧) إمتاع الأسماع، ١/ ٤٥١، شرح المواهب اللدنية، ٣/ ٧٢.

(٨) الحاكم، المستدرك، ٣/ ٥٠ - ٥١، والذهبي، ميزان، ١/ ٣٠٦، ابن كثير، البداية، ٥/ ١٠ - ١١.

(٩) حائطه: أي بستانه.

وبردت له فيه ماء، وهيأت له فيه طعامًا، فلما دخل قام على باب العريش، فنظر إلى امرأتيه، وما صنعتا له، فقال: رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في الضح[1] والريح والحر، وأبو خيثمة في ظل بارد، وطعام مهيأ، وامرأة حسناء في ماله مقيم؟! ما هذا بالنصف، ثم قال: والله لا أدخل عريش واحدة منكما حتى ألحق برسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فهيئا لي زادًا، ففعلتا ثم قدم ناضحه[2] فارتحله، ثم خرج في طلب رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حتى أدركه حين نزل تبوك، وقد كان أدرك أبا خيثمة عمير بن وهب الجمحي في الطريق، يطلب رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فترافقا، حتى إذا دنوا من تبوك، قال أبو خيثمة لعمير بن وهب: إن لي ذنبًا، فلا عليك أن تخلف عني حتى آتي رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ففعل حتى إذا دنا من رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وهو نازل بتبوك، قال الناس: هذا راكب على الطريق مقبل، فقال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**كن أبا خيثمة**»، فقالوا: يا رسول الله، هو - والله - أبو خيثمة، فلما أناخ أقبل فسلم على رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فقال له رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**أولى لك**[3] **يا أبا خيثمة**»، ثم أخبر رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الخبر، فقال له رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خيرًا، ودعا له بخير[4].

لقد أبصر أبو خيثمة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بعين العقل وتذكر وتيقظ ضميره وحاسب نفسه، عندما رأى ما أعدت له زوجتاه من الماء البارد والطعام مع الظل المبرد والإقامة، وتذكر رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وما هو فيه من التعرض للشمس والريح والحر، فشعر بالذنب وتيقظ ضميره فخرج يقطع الفيافي والقفار حتى وصل إلى النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في تبوك وحصل على رضاه وسروره[5].

ولما وصل أبو خيثمة إلى النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأقر بذنبه، عاتبه، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ معاتبة تحمل في طياتها اللوم والتأنيب والتهديد، إذ قال له رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**أولى لك يا أبا خيثمة**» فهي كلمة فيها معنى التهديد، ومعناها: دنوت من الهلكة.

---

(١) الضح: أي في الشمس.
(٢) ناضحه: أي جمله.
(٣) أجدر بك.
(٤) الحاكم، المستدرك، ٣/ ٥٠ - ٥١، والذهبي، ميزان، ١/ ٣٠٦، ابن كثير، البداية، ٥/ ١٠ - ١١، البداية والنهاية، ٥/ ٨.
(٥) التاريخ الإسلامي، ٨/ ١١١، ١١٢.

إنه مما لا شك فيه أن هذا الكلام كان له وقعه في نفس الجندي، إذ أوقفه على حقيقة ما ارتكب من الذنب.

وهذا منهج نبوي كريم في تعليم القادة عدم السكوت على أخطاء الجنود؛ لأن ذلك يضرهم ويلحق الضرر بغيرهم، بل عليهم أن يسعوا إلى تصويب الخطأ ومحاسبة مرتكبه وتقويمه، وبذلك يكونون معلمين ومرشدين ومربين.

ولقد كان رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ علي علم تام بمعادن أصابه وطبائعهم يدل ذلك قول الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حينما قال له أصحابه: هذا راكب على الطريق مقبل فقال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**كن أبا خيثمة**»، فلما اقترب وعرفوه قالوا: يا رسول الله، هو - والله - أبو خيثمة، فكان صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يعلم معادن رجاله، يعرف المستجيب من غيره، ويعرف التائب المنيب إلى ربه إذ زلت قدمه بسرعة رجوعه، ومعرفة خصال الرجال ومعادنهم تدل على معرفة واسعة، وخبرة مستوعبة فاحصة نتيجة التعامل والاحتكاك في ميادين الحياة المختلفة، فقد كان يخالط الجميع، يسمع منهم ويسمعهم ويسيرون معه، ويجاهدون تحت رايته[1].

كما لحق به أبوذر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وهو لم يتخلف وإنما أبطأ به بعيره، مما دعاه إلى أن يأخذ متاعه فيحمله على ظهره، ويتبع أثر رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ماشيا[2].

وذكر ابن إسحاق قصته فقال: ثم مضى رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سائرًا، فجعل يتخلف عنه الرجل، فيقولون: يا رسول الله، تخلف فلان، فيقول: «**دعوه، فإن يك فيه خير فسيلحقه الله تعالى بكم، وإن يك غير ذلك فقد أراحكم الله منه**»، حتى قيل: يا رسول الله، قد تخلف أبو ذر، وأبطأ به بعيره. فقال: «**دعوه، فإن يك فيه خير فسيلحقه الله بكم، وإن يك غير ذلك فقد أراحكم الله منه**» وتلوَّم[3] أبو ذر على بعيره، فلما أبطأ عليه، أخذ متاعه فحمله على ظهره، ثم خرج يتبع أثر رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ماشيًا، ونزل رسول الله في بعض منازله، فنظر ناظر من المسلمين فقال: يا رسول الله، إن هذا الرجل يمشي على الطريق وحده، فقال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**كن أبا ذر**»[4] فلما تأمله القوم قالوا: يا رسول الله، هو - والله - أبو ذر، فقال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**رحم الله**

(١) الصراع مع الصليبيين، ص١٣٣.
(٢) الواقدي، ٣/ ١٠٠٨ - ١٠١٥.
(٣) تلوم على بعيره: تمهل.
(٤) كن أبا ذر: لفظه الأمر ومعناه الدعاء؛ أي أرجو الله أن تكون أبا ذر.

أبا ذر، يمشي وحده، ويموت وحده، ويبعث وحده» [1] ، ومضى الزمان ، وجاء عصر عثمان ، ثم حدثت بعض الأمور وسُيِّر أبو ذر إلى الربذة ، فلما حضره الموت أوصى امرأته وغلامه: إذا مت فاغسلاني وكفناني ثم احملاني فضعاني على قارعة الطريق ، فأول ركب يمرون بكم فقولوا: هذا أبو ذر . فلما مات فعلوا به كذلك فطلع ركب فما علموا به حتى كادت ركائبهم تطأ سريره ، فإذا ابن مسعود في رهط من أهل الكوفة ، فقال: ما هذا؟ فقيل: جنازة أبي ذر ، فاستهل ابن مسعود يبكي ، فقال: صدق رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**يرحم الله أبا ذر، يمشي وحده، ويموت وحده، ويبعث وحده**» ، فنزل فوليه بنفسه حتى دفنه [2] .

الوصول إلى تبوك:

وصل المسلمون إلى تبوك ، ولم يجدوا أثرًا للحشود الرومانية ولا القبائل العربية ، وبالرغم من أن الجيش مكث عشرين ليلة في تبوك لم تفكر القيادة الرومانية مطلقا في الدخول مع المسلمين في قتال ، حتى القبائل العربية المتنصرة آثرت السكون ، أما حكام المدن في أطراف الشام فقد آثروا الصلح ودفع الجزية [3] .

وعندما انتهى رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلى تبوك على رأس جيش العسرة ، فلم يلق كيداً ، وكعادته - عَلَيْهِ السَّلَامُ - في حربه مع أعدائه ، أراد أن يستثمر حملته تلك التي نجحت في بث الرعب في نفوس الروم وحلفائهم من العرب المتنصرة ، وذلك لإخضاع المنطقة ومن فيها من القبائل العربيّة ، والدويلات الموالية للروم التي باتت تشكل حرباً وتهديداً للمسلمين بتحالفها السياسي والعسكري مع البيزنطيين ، الذي أثمر بوقوفهم جنباً إلى جنب ضد المسلمين في مؤتة .

لذلك جهّز النّبيّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ جيشاً من الفرسان ، أسند قيادته لفارس مغوار حقّق لتوه نجاحاً منقطع النظير في معركة مؤتة التي دارت أحداثها في محيطٍ المنطقةٍ ، ومع نفس العدوّ .

ذلكم هو سيف الله المسلول ، خالد بن الوليد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ، وصدرت الأوامر النّبويّة العليا لقائد الجيش بأن يتوجّه تلقاء دومة الجندل . تلك الدويلة الصّغيرة

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام ، ٤/ ١٧٨ .

(٢) السيرة النبوية لابن هشام ، ٤/ ١٧٨ .

(٣) موارد الظمآن إلى زوائد ابن حبان ، ص ١٤٥ بإسناد صحيح .

التي كانت تتمتّع باستقلال ذاتي بوسط بلاد كلب ، ويملكها الأكيدر بن عبد الملك الكندي الذي كان نصرانياً يدين بالولاء للدولة البيزنطية[١] .

ولما علم خالد بن الوليد بقيادته السرية إلي دومة الجندل سأل النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فقال: يا رسول الله! كيف بدومة الجندل وفيها أكيدر ، وإنما نأتيها في عصابة[٢] من المسلمين "[٣] .

فقال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لخالد: «**إنك ستجده يصيد البقر**» ، فخرج خالد حتى إذا كان من حصنه منظر العين في ليلةٍ مقمرةٍ صافيةٍ "[٤] .

يرسل الله - تبارك وتعالى - البقر إلى حصن الأكيدر لتخرجه من بين أهله وقومه ، وعزه ومنعته ، إلى خالد وأصحابه ، لتتحقق المعجزة النّبويّة ، ويتحقق صدق الصادق المصدوق صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ .

فبينما خالد وأصحابه في منْزلهم ليلاً ، إذ أقبلت البقر حتّى جعلت تحتك[٥] بباب الحصن ، وأكيدر يشرب ويتغنى في حصنه بين امرأتيه ، فاطّلعت إحدى امرأتيه[٦] فرأت البقر تحتك بالباب والحائط ، فقالت امرأته: لم أر كالليلة في اللحم . قال: وما ذاك؟ فقالت: هذه البقر تحتك بالباب والحائط[٧] .

هل رأيت مثل هذا قط؟ قال: لا والله . قالت: فمن يترك مثل هذا؟ قال: لا أحد . فنَزل فأمرَ بفرسه فأُسْرِجَ له وركب معه نفرٌ من أهل بيته فيهم أخٌ له ، يُقال له: حسَّان ، فخرجوا بمطاردهم[٨] . ليصيد البقر الذي جاء بنفسه إليهم هذه الليلة خلاف العادة ، ولم يَدُر بخَلَد الأكيدر وامرأته ، ومَن ركب معه من أهله أنّ ذلك قدراً إلهياً ، وأمراً عُلوياً ، ومُعجزة نبويّة أكرم الله بها نبيّه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، وأمدّه بها تأييداً له وتمكيناً على أعدائه ، فلمّا فصلوا من الحصن ، وخيل خالد تنظرهم لا يصهل منها فرس ولا يتحرّك "[٩] . فلمّا التقوا: شدّت عليهم خيل خالد بن

---

(١) غزوة مؤتة والسرايا والبعوث النبوية الشمالية ، ص ٤٣٨ .
(٢) عصابة: جماعة ليست بالكثيرة العدد .
(٣) البيهقي ، دلائل ٥/ ٢٥٢ .
(٤) البيهقي ، دلائل ٥/ ٢٥٢ .
(٥) احتك به ، وحكّ نفسه عليه .
(٦) ذكر الواقدي ، مغازي ٣/ ١٠٢٥ ، أنّ اسمها الرباب بنت أنيف بن عامر بن كندة .
(٧) البيهقي ، دلائل ٥/ ٢٥٢ .
(٨) جمع مطرد ، وهو رمح قصير يُطعَن به . وقيل: يطرد به الوحش . ، اللسان ٤/ ٢٥٧ .
(٩) الواقدي ، مغازي ٣/ ١٠٢٦ .

الوليد، فاستأسر أكيدر وامتنع أخوه حسان، وقاتل حتّى قُتِلَ وهرب مَن كان معهما، فدخل الحصن"[1]، "وقال خالد لأكيدر: أرأيتك إن أجرتك تفتح لي دومة؟ قال: نعم. فانطلق حتّى دنا منها"[2]. "ونادى أكيدر أهله: افتحوا باب الحصن، فرأوا ذلك، فأبى عليهم مضاد أخو أكيدر[3]" فلمّا رأى ذلك قال خالد: "أيها الرجل! خلّني فلك الله لأفتحنّها لك، إنّ أخي لا يفتحها لي ما علم أنّي في وثاقك. فأرسله خالد، ففتحها له، فلمّا دخل أوثق أخاه وفتحها لخالد. ثُمَّ قال: اصنع ما شئت. فدخل خالد وأصحابه، فذكر خالد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قول رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، والذي أمره، فقال له أكيدر: والله ما رأيتها قط جاءتنا إلاّ البارحة - يريد البقر - ولقد كنت أضمّر لها[4]، إذا أردت أخذها فأركب لها اليوم واليومين، ولكن هذا القَدَر. ثُمَّ قال: يا خالد! إن شئت حكّمتك، وإن شئت حكّمتني. فقال خالد: بل نقبل منك ما أعطيت! فأعطاهم ثمانمائة من السبي، وألف بعير، وأربعمائة درع، وأربعمائة رمح"[5]. "ثُمَّ إنّ خالداً قدم بالأكيدر على رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فحقن له دمه، وصالحه على الجزية، وخلّى سبيله، فرجع إلى قريته"[6]. ثُمّ إنّ أكيدر دومة الجندل أهدى لرسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حلّة حرير"[7] فجعل أصحابه يلمسونها ويعجبون من لينها. فقال: «**أتعجبون من لين هذه؟ لمناديل سعد بن معاذ في الجنّة، خير منها وألين**»[8].

ويستفاد من هذه السرية ما يأتي:

- الحكمة من اختيار خالد بن الوليد لقيادة هذه السرية:

يتبيّن من إسناد النّبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قيادة هذه السرية لسيف الله خالد بن الوليد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، مدى ما كان يتمتع به عَلَيْهِ السَّلَامُ من حنكة عسكرية فذّة، وذكاءٍ

(١) ابن سعد، طبقات ٢/ ١٦٦.
(٢) البيهقي، دلائل ٥/ ٢٥٢.
(٣) الواقدي، مغازي، ٣/ ١٠٢٥، وابن سعد، الطبقات، ٢/ ١٦٦.
(٤) ضمّر الخيل تضميراً، علّفها القوت بعد السّمَن. (القاموس: الضمر).
(٥) البيهقي، دلائل ٥/ ٢٥٢.
(٦) البيهقي، دلائل٥/ ٢٥٠.
(٧) مسلم، الصحيح٥/ ٦٩.
(٨) أخرجه مسلم، الصحيح ٥/ ٦٨، غزوة مؤتة والسرايا والبعوث النبوية الشمالية، ص ٤٤٣.

منقطع النظير، فخالد بن الوليد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ هو القائد المظفَّر، وبطل مؤتة المُتوَّج، ولا بُدّ أنه أصبح معروفاً معرفة تامّة لدى القبائل العربية المنتصرة التي واجهته في مؤتة، وعرفت مدى ما كان يتمتّع به مِن ذكاءٍ قياديّ، وحنكةٍ عسكريةٍ، فأراد النّبيّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن يستثمر هذا النجاح لخالد ضدَّهم، ويرميهم به ليتحصَّل على أفضل النتائج المرجوة بأقل قدر ممكنٍ من الخسائر، وتلك استراتيجية الرسول القائد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ دائماً مع أعدائه.

-المعجزة النبوية:

قال الأكيدر لخالد: "والله ما رأيتها قط جاءتنا إلاّ البارحة - يريد البقر - ولقد كنت أضمّر لها إذا أردت أخذها، فأركب لها اليوم واليومين".

ويحقُّ للأكيدر وأهله أن يتعجّبوا من فِعل البَقَر تلك الليلة، لأنّه أمر خلاف العادة، وهكذا المعجزات النّبويّة دائماً تكون خارقة للعادات، ولقد كانت تلك قدرة إلهية، ومعجزة نبويّة، هيأها الله - تبارك وتعالى - لنبيّه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ تأييداً له وتمكيناً على أعدائه، فما كانت البقر لتأتي لحتفها بنفسها لولا أنّ خالقها أمرها بذلك، وساقها بلا سائق إلى ذلك المصير، فالبقر وإن كانت حيواناً لا يعقل، ولكنها بفطرتها التي فطرها الله عليها تُدرك مكامن الخطر ومدارك الهلكة، فتبتعد عنها كثيراً، وهو الأمر الذي تعوّده الأكيدر عنها حيث كان يضمّر لها الخيل، ويستعد لها ثُمّ يركب في طلبها اليوم واليومين حتّى يجدها في مكامنها البعيدة عن الخطر، ولكن قدر الله عز وجل، وقدرته العلية، وأمره الذي لا يُردّ، سخّر ذلك البقر لنبيّه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وجعله في خدمة أهدافه وطوّعه جندياً مجنّداً من جنوده، يستدرج به أعداءه بعيداً عن دار عِزه وسلطانه ليقع فريسة سهلة المنال في يد الجندي الآخر خالد بن الوليد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، الذي خرج في طاعة قائده وإمامه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ومنطلقاً دونما جدال ولا مناقشة، مِمَّا يدل على ما كان يتمتع به سلفنا الصالح - رضي الله تعالى عنهم - مِنَ الإيمان المُطلق بنبيّهم صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وتصديقه فيما يقول، وطاعتهم لولي الأمر، وتأدّبهم الجم مع مقامه الشريف عَلَيْهِ السَّلَامُ، ومعرفتهم حقّ الإمام من الطاعة فيما يأمر بمعروف.

-لمناديل سعد بن معاذ في الجنّة أحسن من هذا:

قال النّبيّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لأصحابه حينما رآهم يتعجّبون من الجُبّة التي أهداها له الأكيدر: "أتعجبون من هذا؟ فوالذي نفسي بيده لمناديل سعد بن معاذ في الجنّة أحسن من هذا". هذه الحادثة على بساطتها توضح لنا أمرين على درجةٍ كبيرةٍ

من الأهمية:

الأمر الأوّل: معرفة مدى ما كان عليه الصحابة - رضي الله تعالى عنهم - من البساطة، والتواضع، والزهد، وترك بهرج الدنيا، ربّاهم على ذلك المربِّي الأوّل، رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، الذي مات وهو لم يشبع من خُبز الشعير بأبي هو وأُمي، وهو الذي لو أراد لَحِيزَت له الدُّنيا بأسرها.

الأمر الثّاني: معرفة مدى تفاهة متاع الدنيا وملذاتها، مقارنةً بنعيم الآخرة، وما أعدّه الله - تبارك وتعالى - للمتّقين في جنّات النعيم، فحُلَّة الديباج المنسوجة بالذهب لا تساوي شيئاً إذا قيست بمناديل الجنّة التي هي ليست من اللباس، بل دونه، فما بالك بلباسها؟!.

وهكذا كان المصطفى صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يُرَبِّي أصحابه مُوَضحاً لهم أنّ الدُّنيا بملذّاتها ونعيمها، وبما فيها من ذهبٍ وفضّةٍ وحريرٍ وديباج، لا تساوي شيئاً يُذكر بِمَا أعدّه الله تبارك وتعالى لعباده في جنّاتٍ فيها ما لا عين رأت، ولا أُذن سمعت، ولا خَطَر على قلب بشر.

وحينما يعرف الإنسان المؤمن التقيّ هذه الحقيقة الناصعة، فإنّه يكون أدعى لترك ما في الدنيا من ملذّات وشهوات، وأقرب للزهد فيها، والتّطلّع لِما ادّخره الله عز وجل لعباده المتّقين بالعمل الصالح، والجدّ في الطاعة، والتّقى والعفاف: ﴿وَفِي ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ﴾. [المطفّفين: ٢٦].

وقد آتت هذه التربية العظيمة أكلها وأينعت ثمارها مع سلفنا الصالح - رضي الله تعالى عنهم - وهكذا رأيناهم حينما فتحت لهم الدّنيا، وانساقت إليهم بجذافيرها، لم يغرّهم بهرجها، ولم ينخدعوا بنعيمها، ولم ينساقوا وراءها، بل كانوا أزهد الناس فيها، فملكوها ولم تملكهم، وساقوها بزمام التقى، والعفاف، وغنى النفس، والورع، والزهد، ولم تسقهم بزمام الشهوات، والملذّات، والنعيم الزائل، والمعاصي الموبقة، روّضوها لطاعة الله وجعلوها دار عبور وممرّ، وطريقاً إلى الجنّة، ولم تروّضهم لشهواتها وملذاتها، فتجعلها طريقاً لهم إلى النار، ولم يتّخذوها دار بقاء وقرار.

إنّه عندما عرف السلف حقيقة هذه الدّنيا الفانية، دانت لهم فدانت لهم أممها من أقطارها، وعندما ضيَّع الخلف هذه المفاهيم الصحيحة، ولم يعرفوا الدّنيا على حقيقتها، دانوا لها، فتداعت عليهم أُممها من أقطارها: ﴿إِنَّ اللهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَومٍ حَتَّى

﴿يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾ . [الرعد: ١١] [(١)] .

وفي تبوك وصلت النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هدية من ملك أيلة فَرْوَة بن عمرو الجُذَامي عبارة عن بغلة بيضاء ، وكساء من البرد ، وكان فروة قائداً عربياً من قواد الرومان ، عاملاً لهم على من يليهم من العرب ، وكان منزله مَعَان وما حوله من أرض الشام ، أسلم بعد ما رأي من جلاد المسلمين وشجاعتهم ، وصدقهم اللقاء في معركة مؤتة سنة ٨ هـ ، ولما أسلم بعث إلى رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ رسولاً بإسلامه ، وأهدي له بغلة بيضاء ، ولما علم الروم بإسلامه أخذوه فحبسوه ، ثم خيروه بين الردة والموت ، فاختار الموت على الردة ، فصلبوه بفلسطين على ماء يقال له: عفراء ، وضربوا عنقه [(٢)] .

وتشير بعض الروايات إلى حصول مراسلة بين النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وهو في تبوك - وبين هرقل ملك الروم ، وأن الأخير أرسل رسولا من قبيلة تنوخ العربية ليتعرف له على بعض علامات النبوة عند النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ [(٣)] .

وعقد رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ معاهدات لكل من أهل جرباء وأذرح [(٤)] ،

---

(١) غزوة مؤتة والسرايا والبعوث النبوية الشمالية ، ص ٤٥٢ - ٤٥٥ .

(٢) بن عبد البر ، الدرر في اختصار المغازي والسير ، ١/ ٢٧٤ ، الروض الأنف ، ٤/ ٣٧٨ ، البيهقي ، دلائل٦/ ٩ .

(٣) وكان دحية الكلبي قد حمل رسالة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلى هرقل في أول السنة السابعة من الهجرة ، فإذا صح هذا الخبر ، فإن إرسال دحية الكلبي يكون للمرة الثانية ، وقد أورد الإمام أحمد تفصيلات عن وصول الرجل التنوخي إلى تبوك وأن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عرض عليه الإسلام فامتنع بحجة أنه مكلف برسالة هرقل ، ونقل التنوخي عن النبي ذكره لكتبه التي أرسلها إلى الملوك وكيف رد النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على سؤال هرقل عن رسالته قال: «تدعوني إلى جنة عرضها السماوات والأرض أعدت للمتقين ، فأين النار؟ ، فقال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «سبحان الله أين الليل إذا جاء النّهار؟» ، كما ذكر الرجل التنوخي اعتذار النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ له بأنهم في سفر وإلّا لمنحه جائزة ، وأن عثمان ابن عفان قدم الجائزة نيابة عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وهي «حلة صفورية» . ويذكر التنوخي بعد ذلك بأن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قد أنزله ضيفا على أحد أصحابه من الأنصار ، فلما قام من المجلس ناداه الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، فلما وصل التنوخي إليه حل النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حبوته عن ظهره وقال: «ههنا إمض كما أمرت له» ، قال التنوخي: فجلت في ظهره فإذا أنا بخاتم النبوة في موضع غضون الكتف مثل الحجمة الضخمة . أحمد ، المسند ، ٣/ ٤٤٢ .

(٤) المغازي ، ٣/ ١٠٣٢ . وجرباء: بلدة بالشام تلقاء السراة . وأذرح: مدينة بالشام ، قيل هي فلسطين ، قال في القاموس: بجنب جربا .

ولأهل مقنا[1] ، يؤدي بموجبها هؤلاء الناس من نصارى العرب الجزية كل عام ، وتخضع لسلطان المسلمين ، لقد انفرد رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بالإمارات الواقعة في شمال الجزيرة وعقد معها معاهدات وبذلك أمن حدود الدولة الإسلامية الشمالية[2] ، وبهذه المعاهدات قصّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أجنحة الروم ، فقد كانت هذه القبائل تابعة للروم ودخلوا في النصرانية ، فإقدام من أقدم منها على مصالحة رسول الله والتزامها بالجزية يعتبر قصٌّ لهذه الأجنحة ، وبتر لحبال تبعيتهم للروم ، وتحرير لها من هذه التبعية التي كانت تذلهم وتخضعهم لسلطان الروم ، لينالوا من تساقط فتاتهم شيئاً يعيشون به ، وخوفاً من ظلمهم لقوتهم الباطشة وقد وفوا بعهد الصلح والتزموا أداء الجزية ، فأعطوها عن يد وهم صاغرون[3] ، وهذه سياسة نبوية حكيمة اختطها رسول الله في بناء الدولة ودعوة الناس لدين الله ، فقد استطاع أن يفصل بين المسلمين وبين الروم بإمارات تدين للرسول بالطاعة وتخضع لحكم المسلمين وأصبحت في زمن الخلفاء الراشدين نقاط ارتكاز سهلت مهمة الفتح الإسلامي في عهدهم فمنها انطلقت قوات المسلمين إلى الشمال ، وعليها ارتكزت لتحقيق هدفها العظيم[4] .

في طريق العودة إلى المدينة:

ومر المسلمون في طريق عودتهم من تبوك بالحجر وقد ثبت أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ نهى المسلمين عن دخول مساكن ثمود خشية أن يصيبهم ما أصابهم ، فقد تسارع الناس إلى أهل الحجر يدخلون عليهم ، فبلغ ذلك رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فنادى في الناس: الصلاة جامعة ، فقال: "ما تدخلون على قوم غضب الله عليهم ، فناداه رجل منهم: نعجب منهم يا رسول الله ، قال: «**أفلا أنذركم بأعجب من ذلك؟ رجل من أنفسكم ينبئكم بما كان قبلكم وما هو كائن بعدكم، فاستقيموا وسددوا، فإن الله عز وجل لا يعبأ بعذابكم شيئاً، وسيأتي قوم لا يدفعون عن أنفسهم شيئاً**»[5] .

---

(١) مغازي الواقدي ، ١/ ٤١٥ ، الوثائق السياسية في عهد النبوة والخلافة الراشدة ، ص١١٩ – ١٢٤ . والمقنا: قرب أيلة . انظر: معجم البلدان ، ٨/ ١٢٨ .

(٢) الصراع مع الصليبيين ، ص٢١٧ .

(٣) محمد صادق عرجون ، ٤/ ٤٧٩ .

(٤) الصراع مع الصليبيين ، ص٢٢١ .

(٥) البخاري ، الصحيح ، فتح الباري ٨/ ١٢٥ ، أحمد – المسند ٤/ ٢٣١ .

كما ورد أنه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ نهى الجيش عن شرب ماء الحجر أو الوضوء منه وأن يعلفوا إبلهم بما عجنوه بماء بئر الحجر فقد روي عن ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: إن الناس نزلوا مع رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أرض ثمود، الحجر، واستقوا من بئرها، واعتجنوا به، فأمرهم رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن يهريقوا ما استقوا من بئارها، وأن يعلفوا الإبل العجين، وأمرهم أن يستقوا من البئر التي كانت تردها الناقة[1] وقال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**لاتدخلوا مساكن الذين ظلموا أنفسهم، إلا أن تكونوا باكين حذراً أن يصيبكم مثل ما أصابهم ثم زجر[2] فأسرع حتى خلفها**»[3].

وهذا منهج نبوي كريم في توجيه رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ صحابته إلى الاعتبار بديار ثمود، وأن يتذكروا بها غضب الله على الذين كذبوا رسوله، وأن لا يغفلوا عن مواطن العظة برسومها الدارسة، وأطلالها القديمة، ونهاهم عن الانتفاع بشيء مما في ربوعها، حتى الماء، لكيلا تفوت بذلك العبرة، وتخف الموعظة، بل أمرهم بالبكاء، وبالتباكي، تحقيقاً للتأثر بعذاب الله، ولو أنهم مروا بها كما نمر نحن بآثار السابقين، لتعرضوا لسخط الله، فإن الغابرين شهدوا المعجزات ودلائل النبوات، وعاينوا العجائب، لكن قست قلوبهم، فاستهانوا بها، وحق عليهم العذاب، وحاق بهم ماكانوا به يستهزئون، من نقمة الله وغضبه.

إن الله عز وجل ماقص علينا من أنباء الأمم الخالية، إلا لكي نأخذها منها العظة والاعتبار، فإذا شهدنا بأعيننا ديارهم التي نزل فيها سخط المولى عز وجل وعذابه الأليم، وجب أن تكون الموعظة أشد، والاعتبار أعمق، والخوف من سخط المولى - سبحانه - أبلغ. ولهذا تسجى النبي صلوات الله وسلامه عليه - بثوبه لما مر بالديار الملعونة المسخوطة، واستحث خطا راحلته[4] وقال لأصحابه: «**لا تدخلوا بيوت الذين ظلموا أنفسهم إلا وأنتم باكون، خوفاً أن يصيبكم ما أصابهم**»[5].

---

(١) البخاري، كتاب الأنبياء، رقم ٣٣٧٩.
(٢) زجر: أي زجر ناقته ومعناه ساقها سوقاً شديداً حتى خلفها أي جاوز المساكن.
(٣) البخاري، كتاب الأنبياء رقم ٣٣٨١، ابن كثير، البداية والنهاية، ٥/ ١١.
(٤) صور وعبرمن الجهاد النبوي في المدينة، ص٤٨٠.
(٥) البخاري، كتاب الأنبياء رقم ٣٣٨١.

وحين اشتكى المسلمون ما أصاب إبلهم من التعب والجهد دعا الله سبحانه وتعالى قائلا: «**اللّهمّ احمل عليها في سبيلك إنّك تحمل على القويّ والضّعيف، وعلى الرطب واليابس، في البرّ والبحر**»، فاستجاب الله تعالى - جل شأنه - لدعاء النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فنشطت الإبل حتى وصلت بهم المدينة دون أن يشتكي أحد منها[1].

وحاول جماعة من المنافقين المشاركين في الجيش وهم ملثمون حتى لا يعرفوا أن ينفروا دابة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لتطرحه من رأس عقبة في الطريق مع عتمة الليل، فعلم بمؤامرتهم وفطن لهم وأمر بإبعادهم بعد أن عصمه الله تعالى من أذاهم[2]، فعن عروة بن الزبير قال: لما قفل رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من تبوك إلى المدينة هم جماعة من المنافقين بالفتك به وأن يطرحوه من رأس عقبة في الطريق، فأخبر بخبرهم فأمر الناس بالمسير من الوادي وصعد هو العقبة وسلكها معه أولئك النفر وقد تلثموا، وأمر رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عمار بن ياسر وحذيفة بن اليمان أن يمشيا معه، عمار آخذ بزمام الناقة، وحذيفة يسوقها، فبينما هم يسيرون إذ سمعوا بالقوم قد غشوهم، فغضب رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأبصر حذيفة فرجع إليهم ومعه محجن، فاستقبل وجوه رواحلهم بمحجنه، فلما رأوا حذيفة ظنوا أن قد أظهر على ما أضمروه من الأمر العظيم فأسرعوا حتى خالطوا الناس، وأقبل حذيفة حتى أدرك رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فأمرهما فأسرعا حتى قطعوا العقبة ووقفوا ينتظرون الناس، ثم قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لحذيفة: «**هل عرفت هؤلاء القوم؟**» قال: ما عرفت إلا رواحلهم في ظلمة الليل حين غشيتهم، ثم قال: «**علمتما ما كان من شأن هؤلاء الركب؟**» قالا: لا، فأخبرهما بما كانوا تمالؤوا عليه وسماهم لهما واستكتمهما ذلك؟ فقالا يا رسول الله أفلا تأمر بقتلهم؟ فقال: «**أكره أن يتحدث الناس أن محمدا يقتل أصحابه**» قال ابن إسحاق: وفيهم أنزل الله عز وجل: ﴿**وهموا بما لم ينالوا**﴾ [التوبة: ٧٤][3].

ولما أشرف رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على المدينة قال هذه طابة أسكنتيها ربي تنفي خبث أهلها كما ينفي الكير خبث الحديد، ولما رأى صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ جبل أحد

---

(١) أحمد - المسند ٦/ ٢٠، موارد الظمآن في زوائد ابن حبّان ص/ ٤١٨، بإسناد حسن.
(٢) أحمد، المسند، ٥/ ٣٩٠ - ٩١، البيهقي، السنن، ٩/ ٣٢ - ٣.
(٣) أحمد، المسند، ٥/ ٣٩٠ - ٩١، البيهقي، دلائله، ٥ / ٢٥٦ - ٢٥٨، البداية والنهاية، ٥ / ٢٥.

قال: «هذا أحد جبل يحبنا ونحبه» ، ثم قال: «إن خير دور الأنصار دار بني النجار، ثم دار بني عبد الأشهل، ثم دار بني الحارث بن الخزرج، ثم دار بني ساعد، وفي كل دور الأنصار خير» ، ثم لحق سعد بن عبادة بالجيش ، فقال له أبو أسيد: ألم تر أن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خير دور الأنصار فجعلنا آخرها دارا ، فأدرك سعد رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، فقال: يا رسول الله ، خيرت دور الأنصار فجعلتنا آخرها ، فقال: «أوليس بحسبكم أن تكونوا من الخيار» [1] .

ولما اقترب الجيش الإسلامي من المدينة خرج الصبيان إلى ثنية الوداع لاستقباله [2] ، ومعهم النساء والولائد وهم يرددون:

طلع البدر علينا ::: من ثنيات الوداع
وجب الشكر علينا ::: ما دعا لله داع [3]

وكان أول ما فعله النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عند دخوله المدينة أن صلّى في مسجده الشريف ركعتين ، ثم جلس للناس فجاءه المنافقون المتخلفون عن الغزوة فاعتذروا بشتى الأعذار فقبل منهم علانيتهم واستغفر لهم ووكل سرائرهم إلى الله تعالى [4] .

حرق مسجد الضرار:

وقد أصبح الموقف جديًا من المنافقين بعد الرجوع من غزوة تبوك ، فقد امتنع النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عن الصلاة في مسجد الضرار الذي كانوا بنوه قبل الغزوة ، وأمر بتحريقه ، وأنزل الله عز وجل قوله: ﴿ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا لِمَنْ حَارَبَ اللهَ وَرَسُولَهُ مِنْ قَبْلُ وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَا إِلا الْحُسْنَى وَاللهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ * لا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا لَمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ فِيهِ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَطَهَّرُوا وَاللهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ ﴾ [التوبة: ١٠٧ - ١٠٨] [5] .

وقصة المسجد الضرار أنه كان بالمدينة قبل مقدم رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إليها رجل من الخزرج يقال له أبو عامر الراهب ، وكان قد تنصر في الجاهلية وقرأ

---

(١) رواه والبخاري في الصحيح: في الزكاة ، الحديث ، ١٤٨١ ، ومسلم في الصحيح ، في كتاب الفضائل ، الحديث ١١ ، فتح الباري ، ٣ / ٣٤٣ . البيهقي ، دلائل ٥/ ٣٥٢ .
(٢) البخاري ، الصحيح ، ٦/ ٨ ، كتاب المغازي .
(٣) ابن حجر ، فتح الباري ، ٤٤٢٦ - ٤٤٢٧ .
(٤) البخاري ، الصحيح ، فتح الباري - الحديث ٤٤١٨ ، مسلم ، ٤/ ٢١٢٣ ، حديث ، ٢٧٦٩ .
(٥) الطبري ، التفسير ، ١١/ ٢٣ - ٢٤ ، ابن هشام ، السيرة ، ٣/ ٥٣٠ .

علم أهل الكتاب، وكان فيه عبادة في الجاهلية، وله شرف في الخزرج كبير، فلما قدم رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مهاجراً إلى المدينة واجتمع المسلمون عليه وصارت للإسلام كلمة عالية وأظهرهم الله يوم بدر شرق اللعين أبو عامر بريقه وبارز بالعداوة وظاهر بها وخرج فاراً إلى كفار مكة من مشركي قريش يمالئهم على حرب رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فاجتمعوا بمن وافقهم في أحياء العرب فكان من أمر المسلمين ماكان وامتحنهم الله عز وجل، وكانت العاقبة للمتقين وكان هذا الفاسق قد حفر حفائر فيما بين الصفين فوقع في إحداهن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأصيب ذلك اليوم فجرح وكسرت رباعيته اليمنى والسفلى وشج رأسه صلوات الله وسلامه عليه، وتقدم أبو عامر في أول المبارزة إلى قومه من الأنصار فخاطبهم، واستمالهم إلى نصره وموافقته، فلما عرفوا كلامه قالوا لا أنعم الله بك عينا - يا فاسق يا عدو الله، ونالوا منه وسبُّوه فرجع وهو يقول: والله لقد أصاب قومي بعدي شر، وكان رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قد دعاه إلى الله قبل فراره وقرأ عليه القرآن، فأبى أن يسلم وتمرد، فدعا عليه رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن يموت بعيداً طريداً فنالته هذه الدعوة وذلك أنه لما فرغ الناس من أحد ورأى أمر الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في ارتفاع وظهور ذهب إلى هرقل ملك الروم يستنصره على النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فوعده ومناه وأقام عنده وكتب إلى جماعة من قومه الأنصار من أهل النفاق والريب يعدهم ويمنيهم بجيش يقاتل به رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ويغلبه ويرده عما هو فيه، وأمرهم أن يتخذوا له معقلاً يقدم عليهم فيه من يقدم من عنده لأداء كتبه ويكون مرصداً له إذا قدم عليهم بعد ذلك، فشرعوا في بناء مسجد مجاور لمسجد قباء فبنوه وأحكموه وفرغوا منه قبل خروج رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلى تبوك وجاءوا فسألوا رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن يأتي إليهم فيصلي في مسجدهم ليحتجوا بصلاته فيه على تقريره وإثباته وذكروا أنهم بنوه للضعفاء منهم وأهل العلة في الليلة الشاتية فعصمه الله من الصلاة فيه فقال: إنّا على سفر ولكن إذا رجعنا إن شاء الله، فلما قفل عَلَيْهِ السَّلَامُ راجعاً إلى المدينة من تبوك ولم يبق بينه وبينها إلا يوم أو بعض يوم نزل عليه جبريل بخبر مسجد ضرار وما اعتمده بانوه من الكفر والتفريق بين جماعة المؤمنين في مسجدهم، مسجد قباء الذي أسس من أول يوم على التقوى، فبعث رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلى ذلك المسجد من هدمه قبل مقدمه المدينة[1].

(١) تفسير ابن كثير، ٢/ ٣٨٨.

وكان هدف المنافقين من بناء مسجد الضرار أربعة أمور:

١ - الضرار لغيرهم، هو المضارّة.

٢ - الكفر بالله والمباهاة لأهل الإسلام، لأنهم أرادوا ببنائه تقوية أهل النفاق.

٣ - التفريق بين المؤمنين، لأنهم أرادوا أن لايحضروا مسجد قباء فتقل جماعة المسلمين، وفي ذلك من اختلاف الكلمة وبطلان الألفة مالا يخفى.

٤ - الإرصاد لمن حارب الله ورسوله. أي الإعداد لأجل من حارب الله ورسوله[1]

وقد خيب الله تعالى مسعاهم، وأبطل كيدهم، بأن أمر نبيه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بهدمه وإزالته.

وقوله سبحانه: ﴿وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَا إِلا الْحُسْنَى﴾ ذم لهم على أيمانهم الفاجرة، وأقوالهم الكاذبة لذلك قال تعالى: ﴿والله يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾.

ثم نهى الله - تعالى - رسوله والمؤمنين عن الصلاة في هذا المسجد نهياً مؤكداً فقال - سبحانه -: ﴿لا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا لَمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ فِيهِ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَطَهَّرُوا والله يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ﴾.

والملاحظ في واقعة المسجد الضرار أن العناية الإلهية كانت تحيط بالحبيب محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فقد أطلعه الله عز وجل على أسرار هؤلاء المنافقين وما أرادوه من تأسيس هذا المسجد، فلولا إعلام الله لرسوله لما أدرك رسول الله حقيقة نواياهم، ولصلى في البناء، فأضفى عليه الشرعية وأقبل الناس يصلون فيه لأن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ صلى فيه، وبذلك يحدث الاختلاط بين المنافقين وضعاف المسلمين فينفردون بهم وقد يؤثرون عليهم بالإشاعات[2].

كما إن ما قام به الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من الأمر بهدم مسجد الضرار هو التصرف الأمثل، وهذا منهج نبوي كريم سنّة لقادة الأمة في القضاء على أي عمل يراد منه الإضرار بالمسلمين وتفريق كلمتهم، فالداء العضال لا يعالج بتسكينه والتخفيف منه، وإنما يعالج ببتره وإزالة آثاره، حتى لا يتجدد ظهوره بصورة أخرى، وإن الثمار العملية، التي لمسها المسلمون على إثر تطبيق الأمر

(١) تفسير الشوكاني، ٢/٤٠٣.
(٢) الصراع مع الصليبيين، ص١٨١.

النبوي الحازم لتدلُّنا على أن هذه المنهجية التي نهجها رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مع هذا المكر الخبيث هي الطريقة المثلى لقمع حركة النفاق في المجتمع المسلم، فقد أصبح أمرهم بعد ذلك يتلاشى شيئاً فشيئاً حتى لم يبق منهم بعد لحاق الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بالرفيق الأعلى إلا عدد قليل، ولم يعرف عنهم بعد تدمير مسجد ضرار أن قاموا بأعمال تخدم الهدف نفسه لعلمهم بنتائج العمل بعد انكشافهم[1].

والحقيقة أن هذا المسجد - مسجد الضرار - الذي اتخذ على عهد رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مكيدة للإسلام والمسلمين.. هذا المسجد مايزال يتخذ في صور شتى، يتخذ في صورة نشاط ظاهره الإسلام وباطنه لسحق الإسلام أو تشويهه... وتتخذ في صورة أوضاع ترفع لافتة الدين عليها لتَتَتَرَّس وراءها، وهي ترمي هذا الدين، وتتخذ في صورة تشكيلات وتنظيمات وكتب وبحوث تتحدث عن الإسلام، لتخدر القلقين الذين يرون الإسلام يذبح ويمحق، فتخدرهم هذه التشكيلات وتلك الكتب بما توحيه لهم من أن الإسلام بخير، وأن لا داعي للخوف أو القلق عليه[2].

ولا يزال أعداء الإسلام من المنافقين والملحدين، والمبشرين والمستعمرين يقيمون أماكن باسم العبادة وما هي لها، وإنما المراد بها الطعن في الإسلام وتشكيك المسلمين في معتقداتهم وآدابهم، وكذلك يقيمون مدارس باسم الدرس والتعليم ليتوصلوا بها إلى بث سمومهم بين أبناء المسلمين، وصرفهم عن دينهم، وكذلك يقيمون المنتديات باسم الثقافة والغرض منها خلخلة العقيدة السليمة في القلوب والقيم الخلقية في النفوس، ومستشفيات باسم المحافظة على الصحة والخدمة الإنسانية والغرض منها التأثير على المرضى والضعفاء وصرفهم عن دينهم وقد اتخذوا من البيئات الجاهلة والفقيرة لاسيما في بلاد إفريقيا ذريعة للتوصل إلى أغراضهم الدنيئة التي لا يقرها عقل ولا شرع ولا قانون[3].

إن مسجد الضرار ليس حادثة في المجتمع الإسلامي الأول وانقضت بل هي فكرة باقية، يخطط لها باختيار الأهداف العميقة، وتختار الوسائل الدقيقة لتنفيذها، وخططها تصب في التآمر على الإسلام وأهله بالتشويه وقلب الحقائق، والتشكيك، وزرع بذور الفتن لإبعاد الناس عن دينهم وإشغالهم بما يضرهم

(١) التاريخ الإسلامي، ٨/ ١٣٠.
(٢) في ظلال القرآن، ٣/ ١٧١٠ - ١٧١١.
(٣) أبو شهبة، السيرة النبوية، ٢/ ٥٠٨.

ويدمر مصيرهم الأخروي[1].

كما امتنع الحبيب محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عن الصلاة على أمواتهم فقد منعه الله من ذلك فنزل قوله تعالى: ﴿وَلا تُصَلِّ عَلَى أَحَدٍ مِنْهُمْ مَاتَ أَبَداً وَلا تَقُمْ عَلَى قَبْرِهِ إِنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللهِ وَرَسُولِهِ وَمَاتُوا وَهُمْ فَاسِقُونَ﴾ [التوبة: ٨٤][2].

وقد نهى الله تعالى عن قبول أعذار المنافقين، فقال في محكم التنزيل: ﴿يَعْتَذِرُونَ إِلَيْكُمْ إِذَا رَجَعْتُمْ إِلَيْهِمْ قُلْ لا تَعْتَذِرُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكُمْ قَدْ نَبَّأَنَا اللهُ مِنْ أَخْبَارِكُمْ وَسَيَرَى اللهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَى عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [التوبة: ٩٤].

وقد أمر الله تعالى بعدم تصديقهم وبالإعراض عنهم ووصفهم بأنهم رجس فقال تعالى: ﴿سَيَحْلِفُونَ بِاللهِ لَكُمْ إِذَا انْقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لِتُعْرِضُوا عَنْهُمْ فَأَعْرِضُوا عَنْهُمْ إِنَّهُمْ رِجْسٌ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ * يَحْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنْ تَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنَّ اللهَ لا يَرْضَى عَنِ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ﴾ [التوبة: ٩٥ - ٩٦].

المخلفون:

كان عدد المتخلفين كبيرا، ولما كان عدد أفراد الجيش كبيرا فقد ظن المتخلفون أن أحدا لا يفطن إلى غيابهم وكانوا أربعة أصناف فمنهم من له أعذار شرعية وعذرهم الله سبحانه وتعالى، ومنهم من ليس له أعذار شرعية وتاب الله عليهم، ومنهم من منافقي الأعراب الذين يسكنون حول المدينة، ومنهم من منافقي المدينة.

أولاً: المخلفون الذين لهم أعذار شرعية وعذرهم الله سبحانه وتعالى: وفيهم نزل قوله تعالى: ﴿لَيْسَ عَلَى الضُّعَفَاءِ وَلا عَلَى الْمَرْضَى وَلا عَلَى الَّذِينَ لا يَجِدُونَ مَا يُنْفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا للهِ وَرَسُولِهِ مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِنْ سَبِيلٍ واللهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ * وَلا عَلَى الَّذِينَ إِذَا مَا أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لا أَجِدُ مَا أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوْا وَأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ حَزَنًا أَلا يَجِدُوا مَا يُنْفِقُونَ﴾ [التوبة: ٩١ - ٩٢].

ثانيا: المخلفون الذين ليس لهم أعذار شرعية وتاب الله عليهم: وفيهم نزلت ثلاث آيات:

١ - قوله تعالى: ﴿وَءَاخَرُونَ اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا عَمَلا صَالِحًا وَءَاخَرَ سَيِّئًا عَسَى اللهُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [التوبة: ١٠٢].

---

(١) الصراع مع الصليبيين، ص١٨٢.

(٢) البخاري، الصحيح، فتح الباري، ٣/ ٢١٤، ٨/ ٣٢٣.

هؤلاء الجماعة تخلفوا عن الغزو لغير عذر مسوغ للتخلف ثم ندموا على ذلك، ولم يعتذروا بالأعذار الكاذبة كما اعتذر المنافقون، بل تابوا واعترفوا بالذنب ورجوا أن يتوب الله عليهم والمراد بالعمل الصالح: ما تقدم من إسلامهم وقيامهم بشرائع الإسلام وخروجهم إلى الجهاد في سائر المواطن والمراد بالعمل السيئ: هو تخلفهم عن هذه الغزوة. وقد أتبعوا هذا العمل السيئ عملاً صالحاً وهو الاعتراف به والتوبة عنه.

وأصل الاعتراف والإقرار بالشيء. ومجرد الإقرار لا يكون توبة إلا إذا اقترن به الندم على الماضي والعزم على تركه في الحال والاستقبال وقد وقع منهم ما يفيد هذا. ومعنى الخلط أنهم خلطوا كل واحد منهما بالآخر كقولك خلطت الماء باللبن واللبن بالماء.

وفي قوله: ﴿عَسَى اللهُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ﴾ دليل على أنه قد وقع منهم مع الاعتراف ما يفيد التوبة، أو مقدمة التوبة وهي الإعتراف قامت مقام التوبة وحرف الترجي وهو عسى هو في كلام الله سبحانه يفيد تحقق الوقوع لإن الأطماع من الله سبحانه إيجاب لكونه أكرم الأكرمين: ﴿إِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ أي: يغفر الذنوب ويتفضل على عباده[1].

٢ - قوله تعالى: ﴿وَءَاخَرُونَ مُرْجَوْنَ لأَمْرِ اللهِ إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ واللهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ [التوبة: ١٠٦].

والمراد بهؤلاء المرجون كما في الصحيحين هلال بن أمية، وكعب بن مالك ومرارة بن الربيع.. وكانوا قد تخلفوا عن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لأمر ما مع الهم باللحاق به عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ فلم يتيسر لهم ولم يكن تخلفهم عن نفاق وحاشاهم فقد كانوا من المخلصين فلما قدم النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وكان ما كان من المتخلفين قالوا: لا عذر لنا إلا الخطيئة ولم يعتذروا له صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ولم يفعلوا كما فعل أهل السواري[2] وأمر رسول الله باجتنابهم وشدد الأمر عليهم، وقد وقف أمرهم خمسين ليلة لا يدرون ما الله تعالى فاعل بهم[3].

٣ - قال تعالى: ﴿وَعَلَى الثَّلاثَةِ الَّذِينَ خُلِّفُوا حَتَّى إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنْفُسُهُمْ وَظَنُّوا أَنْ لا مَلْجَأَ مِنَ اللهِ إِلا إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ

(١) تفسير الشوكاني، ٢/ ٣٩٩.
(٢) أي الذين ربطوا أنفسهم في سواري المسجد كأبي لبابة وأصحابه.
(٣) تفسير الآلوسي، ١١/ ١٧.

﴿لِيَتُوبُوا إِنَّ اللهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ [التوبة: ١١٨].

والمراد بهؤلاء الثلاثة هم: هلال بن أمية، وكعب بن مالك، ومرارة بن الربيع وفيهم نزلت هذه الآية[١].

وسوف نرجع الحديث عنها إلي نهاية الحديث عن الغزوة لطول الحديث الذين قد يخرج عن السياق.

ثالثا: المخلفون من منافقي الأعراب الذين يسكنون حول المدينة:

هؤلاء المخلفون من منافقي الأعراب نزل فيهم قوله تعالى: ﴿وَجَاءَ الْمُعَذِّرُونَ مِنَ الأَعْرَابِ لِيُؤْذَنَ لَهُمْ وَقَعَدَ الَّذِينَ كَذَبُوا اللهَ وَرَسُولَهُ سَيُصِيبُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [التوبة: ٩٠].

وقد جاء هؤلاء من الأعراب بما جاؤا به من الأعذار بحق أو باطل على كلا التفسيرين لأجل أن يأذن لهم رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بالتخلف عن الغزوة وطائفة أخرى لم يعتذروا، بل قعدوا عن الغزوة ولغير عذر، وهم منافقوا الأعراب الذين كذبوا الله ورسوله ولم يؤمنوا ولا صدقوا، ثم توعدهم الله - سبحانه - فقال: ﴿سَيُصِيبُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ﴾ أي: من الأعراب، وهم الذين اعتذروا بالأعذار الباطلة، والذين لم يعتذروا بل كذبوا بالله ورسوله: ﴿عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ أي: كثير الألم فيصدق على عذاب الدنيا والآخرة[٢].

ونزل فيهم قوله تعالى: ﴿وَمِمَّنْ حَوْلَكُمْ مِنَ الأَعْرَابِ...﴾.

والمعنى: واذكروا أيها المؤمنون أنه يسكن من حول مدينتكم قوم من الأعراب منافقون، فاحترسوا منهم[٣].

رابعا: المخلفون من منافقي المدينة:

قال تعالى: ﴿فَرِحَ الْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلافَ رَسُولِ اللهِ وَكَرِهُوا أَنْ يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللهِ وَقَالُوا لا تَنْفِرُوا فِي الْحَرِّ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا لَوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ * فَلْيَضْحَكُوا قَلِيلا وَلْيَبْكُوا كَثِيرًا جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ * فَإِنْ رَجَعَكَ اللهُ إِلَى طَائِفَةٍ مِنْهُمْ فَاسْتَأْذَنُوكَ لِلْخُرُوجِ فَقُلْ لَنْ تَخْرُجُوا مَعِيَ أَبَدًا وَلَنْ تُقَاتِلُوا مَعِيَ عَدُوًّا إِنَّكُمْ رَضِيتُمْ بِالْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَاقْعُدُوا مَعَ الْخَالِفِينَ﴾ [التوبة: ٨١ - ٨٣].

---

(١) حديث القرآن الكريم، ٢/ ٦٧٧.

(٢) تفسير الشوكاني، ٢/ ٣٩١.

(٣) حديث القرآن الكريم، ٢/ ٦٨١.

ويلاحظ اختلاف سياسة الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في معاملته للمنافقين عندما اعتذروا له عن المسلمين حيث أنه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عامل المنافقين باللين والصفح، واختار للمسلمين الصادقين الشدة والعقوبة؟ ولاشك أن الشدة والقسوة في هذا المقام مع المسلمين مظهر للإكرام والتشريف، وهو ما لا يستحقه المنافقون، وكيف يستحق المنافقون أن تنزل آيات في توبتهم - على أي حال - أنهم كفرة، ولن ينشلهم شيء مما يتظاهرون به في الدنيا، من الدرك الأسفل في النار يوم القيامة، وقد أمر الشارع جلّ جلاله أن ندعهم لما تظاهروا به ونجري الأحكام الدنيوية حسب ظواهرهم، ففيم التحقيق عن بواطن أعذارهم وحقيقة أقوالهم، وفيما معاقبتهم في الدنيا على ما قد يصدر عنهم من كذب ونحن إنما نعطيهم الظاهر فقط من المعاملة والأحكام، كما يُبدو لنا هم أيضاً، الظاهر فقط من أحوالهم وعقائدهم قال ابن القيم: وهكذا يفعل الرب سبحانه بعباده في عقوبات جرائمهم، فيؤدب عبده المؤمن الذي يحبه وهو كريم عنده، بأدنى زلة وهفوة، فلايزال مستيقظاً حذراً، وأما من سقط من عين الله وهان عليه فإنه يخلي بينه وبين معاصيه، وكلما أحدث ذنباً أحدث له نعمة[1].

مواقف إيمانية من غزوة تبوك:

قصة الثلاثة الذين خلفوا:

وردت قصة الثلاثة الذين خلفوا على لسان كعب بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فيقول رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: لم أتخلف عن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في غزوة غزاها إلا في غزوة تبوك، غير أني كنت تخلفت في غزوة بدر، ولم يعاتب أحداً تخلف عنها، إنما خرج رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يريد عير قريش حتى جمع الله بينهم وبين عدوهم على غير معاد، ولقد شهدت مع رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ليلة العقبة[2] حين تواثقنا على الإسلام، وما أحبُّ أن لي بها مشهد بدر، وإن كانت بدر أذكر في الناس منها، كان من خبري أني لم أكن قطُّ أقوى ولا أيسر حين تخلفت عنه في تلك الغزاة. والله ما اجتمعت عندي قبله راحلتان قطُّ حتى جمعتها في تلك الغزوة، ولم يكن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يريد غزوة إلا ورّى بغيرها، حتى كانت تلك الغزوة غزاها رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في حرّ شديد، واستقبل سفراً بعيداً

(١) زاد المعاد، ٣/ ٥٧٨.

(٢) ليلة العقبة: الليلة التي بايع رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الأنصار على الإسلام.

ومفازاً، وعدوا كثيراً، فجلى للمسلمين أمرهم ليتأهبوا أهبة غزوهم، فأخبرهم بوجهه الذي يريد، والمسلمون مع رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كثير، ولا يجمعهم كتاب حافظ - يريدون الديوان - قال كعب: فما رجل يريد أن يتغيب إلا ظن أن سيخفى له، ما لم ينزل فيه وحيُ الله.

وغزا رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ تلك الغزوة حيث طابت الثمار والظلال، وتجهز رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ والمسلمون معه، فطفقت أغدوا لكي أتجهز معهم، فأرجع ولم أقضي شيئاً، فأقول في نفسي: أنا قادرٌ عليه. فلم يزل يتمادى بي حتى اشتد بالناس الجدُّ، فأصبح رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ والمسلمون معه ولم أقضي من جهازي شيئاً. فقلت: أتجهز بعده بيوم أو يومين، ثم ألحقهم، فغدوت بعد أن فصلوا لأتجهز، فرجعت ولم أقضي شيئاً. ثم غدوت، ثم رجعت ولم أقضي شيئاً. فلم يزل بي حتى أسرعوا وتفارط الغزو[1]، وهممت أن أرتحل فأدركهم وليتني فعلت، فلم يقدر لي ذلك، فكنت إذا خرجت في الناس - بعد خروج رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فطفقت فيهم أحزنني أني لا أرى إلا رجلاً مغموصاً عليه النفاق أو رجلاً ممن عذر الله من الضعفاء، ولم يذكرني رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حتى بلغ تبوك، فقال وهو جالس في القوم بتبوك: ما فعل كعب؟ فقال رجل من بني سلمة: يا رسول الله حبسه برداه، والنظر في عطفيه[2]. فقال له معاذ بن جبل: بئس ماقلت: والله يارسول الله! ماعلمنا عليه إلا خيراً، فسكت رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: فبينما هو على ذلك رأى رجلاً مبيضاً[3] يزول به السراب[4]، فقال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: كن أبا خيثمة، فإذا هو أبو خيثمة الأنصاري، وهو الذي تصدق بصاع التمر حين لمزه[5] المنافقون فقال كعب بن مالك: فلما بلغني أن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قد توجه قافلاً[6] من تبوك حضرني بثي[7]، فطفقت أتذكر الكذب وأقول: بم أخرج من سخطه غداً؟ وأستعين على ذلك كل ذي رأي من أهلي. فلما قيل لي: أن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قد أطل

---

(١) تفارط الغزو: تقدم الغزاة وسبقوا وفاتوا.

(٢) والنظر في عطفيه: أي جانبيه وهو إشارة إلى إعجابه بنفسه ولباسه.

(٣) مبيضاً: لابس البياض.

(٤) يزول به السراب: يتحرك وينهض، والسراب ما يظهر للإنسان.

(٥) لمزه المنافقون: عابوه واحتقروه.

(٦) توجه قافلاً: راجعاً.

(٧) حضرني بثني: حزني.

قادماً[1] زاح[2] عني الباطل، حتى عرفت أني لن أنجو منه بشيء أبداً، فأجمعت صدقه[3]، وصبح رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قادماً، وكان إذا قدم من سفر، بدأ بالمسجد فركع فيه ركعتين، ثم جلس للناس، فلما فعل ذلك جاءه المخلفون فطفقوا يعتذرون إليه، ويحلفون له، وكانوا بضعة وثمانين رجلاً فقبل منهم رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ علانيتهم، وبايعهم، واستغفر لهم، ووكل سرائرهم إلى الله، حتى جئت، فلما سلمت، تبسم تبسم المغضب ثم قال: (تعال) فجئت أمشي حتى جلست بين يديه، فقال لي: ماخلفك؟ ألم تكن قد ابتعت ظهرك؟ قال: قلت: يارسول الله! إني والله لو جلست عند غيرك من أهل الدنيا، لرأيت أني سأخرج من سخطه بعذر، ولقد أعطيت جدلاً[4]، ولكني، والله! لقد علمت، لئن حدثتك اليوم حديث كذب ترضى به عني، ليوشكن[5] الله أن يسخطك عليّ، ولئن حدثتك حديث صدق تجد علي فيه[6] إني لأرجو فيه عقبى الله[7]. والله! ما كان لي عذر، والله! ما كنت قط أقوى، ولا أيسر مني حين تخلفت عنك. قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **«أما هذا فقد صدق، فقم حتى يقضي الله فيك»** فقمت، وثار رجال من بني سلمة فاتبعوني. فقالوا لي: والله ما علمناك أذنبت ذنباً قبل هذا. لقد عجزت في أن لا تكون اعتذرت إلى رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بما اعتذر به إليه المخلفون. فقد كان كافيك ذنبك، استغفار رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لك. قال فوالله! مازالوا يؤنبوني[8] حتى أردت أن أرجع إلى رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فأكذب نفسي.

قال: ثم قلت لهم: هل لقي هذا معي من أحد؟ قالوا: نعم. لقيه معك رجلان، قالا مثل ما قلت، فقيل لهما مثل ما قيل لك. قال: قلت: من هما؟ قالوا: مرارة بن الربيع العامري، وهلال بن أمية الواقفي قال: فذكروا لي رجلين صالحين قد شهدوا بدراً، فيهما أسوة. قال: فمضيت حين ذكروهما لي.

---

(١) أظل قادماً: أقبل ودنا قدومه كأنه أبقى على ظله.
(٢) زاح: ازال.
(٣) أجمعت صدقه: عزمت على صدقه.
(٤) أعطيت جدلاً: فصاحة وقوة في الكلام وبراعة.
(٥) ليوشكن: ليسرعن.
(٦) تجد عليّ فيه: تغضب.
(٧) إني لأرجو عقبى الله: يعقبني خيراً ويثيني عليه.
(٨) يؤنبونني: يلومنني اشد اللوم.

قال: فاجتنبنا الناس، وقال: تغيروا لنا حتى تنكرت لي في نفسي الأرض. فما هي بالأرض التي أعرف. فلبثنا على ذلك خمسين ليلة. فأما صاحباي فاستكانا[1] وقعدا في بيوتهما يبكيان. وأما أنا فكنت أشب القوم وأجلدهم[2]، فكنت أخرج، فأشهد الصلاة، وأطوف في الأسواق ولا يكلمني أحد. وآتي رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فأسلم عليه، وهو في مجلسه بعد الصلاة، فأقول في نفسي: هل حرك شفتيه برد السلام، أم لا؟ ثم أصلي قريباً منه، وأسارقه النظر، فإذا أقبلت على صلاتي نظر إلي، وإذا التفت نحوه أعرض عني، حتى طال ذلك علي من جفوة المسلمين، مشيت حتى تسورت جدار حائط أبي قتادة، وهو ابن عمي، وأحب الناس إلي. فسلمت عليه فوالله! مارد علي السلام، فقلت له: يا أبا قتادة أنشدك بالله[3] هل تعلم إني أحب الله ورسوله؟ قال: فسكت. فعدت فناشدته فسكت، فعدت فناشدته. فقال: الله ورسوله أعلم. ففاضت عيناي، وتوليت حتى تسورت الجدار، فبينما أنا أمشي في سوق المدينة، إذا نبطي من نبط أهل الشام[4]، ممن قدم بالطعام يبيعه بالمدينة يقول: من يدل علي كعب بن مالك، قال: فطفق الناس يشيرون له إليَّ. حتى جاءني فدفع إلي كتاباً من ملك غسان. وكنت كاتباً، فقرأته فإذا فيه: أما بعد، فإنه قد بلغنا أن صاحبك قد جفاك، ولم يجعلك الله بدار هوان ولا مضيعة[5]، فالحق بنا نواسك. قال: فقلت: حين قرأتها وهذا أيضاً من البلاء فتيممت[6] بها التنور، فسجرتها[7]، بها، حتى إذا مضت أربعون من الخمسين واستلبث الوحي[8]، إذا رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يأتيني فقال: إن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يأمرك أن تعتزل امرأتك، قال: فقلت: أطلقها أم ماذا أفعل؟ قال: لا، بل اعتزلها فلا تقربنها. قال: فأرسل إلى صاحبي بمثل هذا.

قال: فقلت لامرأتي: الحقي بأهلك فكوني عندهم حتى يقضي الله في هذا

---

(١) استكانا: خضعا.
(٢) أشب القوم وأجلدهم: أي أصغرهم سناً وأقواهم.
(٣) أنشدك بالله: أسألك بالله.
(٤) نبطي أهل الشام: فلاحو العجم.
(٥) مضيعة: يعني أنك لست بأرض يضيع فيها حقك.
(٦) فتيممت: تيممت: قصدت.
(٧) فسجرتها: احرقتها.
(٨) استلبث الوحي: أبطأ.

الأمر، قال: فجاءت امرأة هلال بن أمية رسول الله، فقالت له: يارسول الله! إن هلال بن أمية شيخ ضائع ليس له خادم، فهل تكره أن أخدمه؟ قال: لا ولكن لا يقربنك فقالت: إنه والله! ما به حركة إلى شيء، والله مازال يبكي منذ كان من أمره ما كان إلى يومه هذا. قال: فقال لي بعض أهلي: لو استأذنت رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في امرأتك؟ فقد أذن لامرأة هلال بن أمية أن تخدمه. قال فقلت: لا أستأذن فيها رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وما يدريني ماذا يقول رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إذا استأذنته فيها، وأنا رجل شاب. قال فلبثت بذلك عشر ليال. فكمل لنا خمسون ليلة على ظهر بيت من بيوتنا، فبينما أنا جالس على الحال التي ذكر الله عز وجل منا، قد ضاقت عليَّ نفسي، وضاقت علي الأرض بما رحبت سمعت صوت صارخ أوفى على سلع[1]، يقول بأعلى صوته: يا كعب بن مالك أبشر. قال: فخررت ساجداً، وعرفت أن قد جاء فرج قال: فآذن[2] رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ توبة الله علينا حين صلى صلاة الفجر، فذهب الناس يبشروننا فذهب قِبَل صاحبي مبشرون، وركض رجل إليَّ فرساً، وسعى ساع من أسلم قبلي. وأوفى الجبل، فكان الصوت أسرع من الفرس فلما جاءني الذي سمعت صوته يبشرني، فنزعت له ثوبيّ فكسوتهما إياه ببشارته، والله! ما أملك غيرهما يومئذ، واستعرت ثوبين فلبستهما، فانطلقت أتأمم[3] رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يتلقني الناس فوجا فوجا[4]، يهنئوني بالتوبة ويقولون: لتهنئك توبة الله عليك حتى دخلت المسجد، فإذا رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ جالس في المسجد، وحوله الناس فقام طلحة بن عبيد الله يهرول حتى صافحني وهنأني والله! ما قام رجل من المهاجرين غيره. قال: فكان كعب لاينساها لطلحة قال كعب: فلما سلمت على رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: وهو يبرق وجهه من السرور، ويقول: أبشر بخير يوم مر عليك منذ ولدتك أمك قال: قلت: أمن عندك يا رسول الله! أم من عند الله؟ فقال: لا بل من عند الله وكان رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إذا استنار وجهه كان قطعة قمر قال: وكنا نعرف ذلك. قال: فلما جلست بين يديه قلت يا رسول الله: إن من توبتي أن أنخلع[5] من مالي صدقة إلى الله وإلى رسول الله

(١) أوفى على سلع: صعده وارتفع عليه وسلع جبل بالمدينة معروف.
(٢) فآذن الناس: أي اعلمهم.
(٣) أتأمم: أي أقصد.
(٤) فوجاً فوجاً: الفوج الجماعة.
(٥) أنخلع من مالي: أتصدق به.

صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ . فقال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**أمسك بعض مالك، فهو خير لك**» قال: فقلت: فإني أمسك سهمي الذي بخيبر . قال: وقلت: يا رسول الله: إن الله إنما أنجاني بالصدق ، وإن من توبتي أن لا أحدث إلا صدقاً ما بقيت قال: فو الله! ما علمت أن أحداً من المسلمين أبلاه[1] الله في صدق الحديث منذ ذكرت ذلك لرسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلى يومي هذا ، أحسن مما أبلاني الله به . والله ما تعمدت كذبة منذ قلت لرسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلى يومي هذا ، وإني لأرجو أن يحفظني الله فيما بقي . قال: فأنزل الله عز وجل: ﴿**لَقَدْ تَابَ اللهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالأَنْصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ مِنْ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُ بِهِمْ رَءُوفٌ رَحِيمٌ * وَعَلَى الثَّلاثَةِ الَّذِينَ خُلِّفُوا حَتَّى إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنْفُسُهُمْ وَظَنُّوا أَنْ لا مَلْجَأَ مِنَ اللهِ إِلا إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا إِنَّ اللهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ**﴾ [التوبة: ١١٧ - ١١٨] حتى بلغ: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ امنوا اتَّقُوا اللهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ**﴾ [التوبة: ١١٩] .

قال كعب: والله ما أنعم الله علي من نعمة قط ، بعد إذ هداني للإسلام ، أعظم في نفسي ، من صدقي رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن لا أكون كذبته فأهلك كما هلك الذين كذبوا ، إن الله قال للذين كذبوا الله حين أنزل الوحي شر ما قال لأحد ، وقال الله: ﴿**سَيَحْلِفُونَ بِاللهِ لَكُمْ إِذَا انْقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لِتُعْرِضُوا عَنْهُمْ فَأَعْرِضُوا عَنْهُمْ إِنَّهُمْ رِجْسٌ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ * يَحْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنْ تَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنَّ اللهَ لا يَرْضَى عَنِ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ**﴾ [التوبة: ٩٥ - ٩٦] .

قال كعب: كنا خلفنا أيها الثلاثة عن أمر أولئك الذين قبل منهم رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حين حلفوا له ، فبايعهم واستغفر لهم ، وأرجأ رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أمرنا حتى قضى الله فيه ، فبذلك قال الله عز وجل: ﴿**وَعَلَى الثَّلاثَةِ الَّذِينَ خُلِّفُوا حَتَّى إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنْفُسُهُمْ وَظَنُّوا أَنْ لا مَلْجَأَ مِنَ اللهِ إِلا إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا إِنَّ اللهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ**﴾ [التوبة: ١١٨] . وليس الذي ذكر الله مما خلفنا ، تخلفنا عن الغزوة ، وإنما هو تخليفه إيانا ، وإرجاؤه أمرنا[2] ، عمن حلف له واعتذر إليه فقبل منه[3] .

---

(١) أبلاه الله: أنعم عليه .

(٢) إرجاءه أمرنا: تأخيره أمرنا .

(٣) البخاري ، كتاب المغازي رقم ٤٤١٨ ؛ صحيح السيرة النبوية ، ص٦١٤ .

ومن الفوائد في هذه القصة:

فوائد الشدائد:

الشدائد ميدان، وفي الميدان يكون المران، وقد قيل: عند الطعان يتبين الرجال، والتجربة خير برهان. وصعوبة الملمات والشدائد محك تظهر فيها الصفات والخلائق، وتنكشف فيها القدرات والمواهب؛ فالشدة تظهر العلة، والأمة تتعلم في الملمة، وما وعظ امرأ مثل تجاربه. والناجحون في الحياة هم الذين واجهوها، وتعاملوا معها، واعتادوا شرها وخيرها.

في الشدائد يتميز المؤمن عن المنافق، والصادق عن الكاذب، ويقف المرء على حقيقة إيمانه، ومدى عمقه ورسوخه، فحاشا لله سبحانه أن يعذب عباده بالابتلاء، ولكنه الإعداد الحقيقي لتحمل الأمانة [1]، وقد قال سبحانه: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ فَإِذَا أُوذِيَ فِي اللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ النَّاسِ كَعَذَابِ اللَّهِ وَلَئِن جَاءَ نَصْرٌ مِّن رَّبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ أَوَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِي صُدُورِ الْعَالَمِينَ ۞ وَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْمُنَافِقِينَ﴾ [العنكبوت: ١٠ - ١١]، وقال: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّى نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَنَبْلُوَ أَخْبَارَكُمْ﴾ [محمد: ٣١].

فلما هجر الناس كعب بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بعد تخلفه عن غزوة تبوك، وضاقت به الحال والمقام، جاءه كتاب من ملك غسان النصراني، فإذا فيه: «بلغني أن صاحبك قد جفاك وأقصاك، ولست بدار مضيعة ولا هوان، فالحق بنا نواسك». فما كان منه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ إلا أن أحرقه، فقد علم أن هذا من البلاء.

لقد ميزت هذه الأزمة عدو الإسلام من صديقه، وكشر كل ذي ناب عن نابه، وبان لنا ما وراء الأكمة، وعند النازلة تعرف أخاك. ولم نكن نعلم ماذا يريد أن يفعل ملك غسان لولا قصة هؤلاء المخلفون الثلاثة. لقد كان الأعداء يمكرون ويخططون من وراء ستار، فصاروا ينفذون علنا أمام الأنظار، فزالت الغشاوة عن البصائر والأبصار. إن أمر عدو ظاهر أيسر من أمر عدو مختف وكامن، ومواجهة خصوم تعرفهم أيسر من مواجهة خصم لا تعرفه.

جزى الله الشدائد كل خير ::: عرفت بها عدوي من صديقي

ولقد كان الخروج إلى تبوك لقتال الروم في وقت جدب في البلاد، وشدة حر، واستواء الثمار، وخرج الجيش المسلم بقيادة الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فبدأ

(١) في ظلال القرآن، ٥/ ٢٧٢١.

المنافقون في الظهور؛ بسخريتهم ببعض المسلمين، ومحاولتهم توهين القوى وتشتيت الطاقات، وكان عبد الله بن أبي رأس المنافقين يعسكر بجنوده أثناء المسير إلى تبوك أسفل معسكر النبي عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، ثم تخلف ابن أبي ومعه كثير من المنافقين عن الجيش، وقال بعضهم: «أيغزو بني الأصفر مع جهد الحال والحر والبلد البعيد؟! أيحسب أن قتالهم كقتال غيرهم؟! والله! لكأني أنظر إليهم مقرنين غدا في الحبال». وكان بعضهم قد تخلف بتعلات باطلة، من بعد الشقة وشدة الحر. لقد كانت هذه الحال، وهذه الشدة كافية في فضح المنافقين، وتمييز المؤمنين الصادقين.

- الصدق منجاة:

الصدق من أعظم مقامات الإيمان وشعبه، ولقد أدرك كعب وهلال، ومرارة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ خطورة الكذب فعزموا على سلوك طريق الصراحة والصدق وإن عرّضهم ذلك للتعب والمضايقات، ولكن كان أملهم بالله تعالى كبيراً في أن يقبل توبتهم ثم يعودون إلى الصف الإسلامي أقوى مما كانوا عليه[1]، وما أجمل ختم رب العالمين توبته على كعب ومن معه بقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾ [التوبة: ١١٩].

- العقاب بالهجر:

الهجر عقوبة زجرية متعددة الغايات والمقاصد الشرعية المحمودة، من فوائدها:

أن الزجر بالهجر عقوبة شرعية للمهجور، ويبعث اليقظة في نفوس المسلمين من الوقوع في المعصية وتحذيرهم، وتحجيم انتشار المعاصي، وقمع العاصي وزجره، ليضعف عن نشر المعصية، فإنه إذا حصلت مقاطعته والنفرة منه بات كالثعلب في جحره. أما معاشرته ومخالطته، وترك تحسيسه ببدعته: فهذا تزكية له، وتنشيط وتغرير بالعامة، إذ العامي مشتق من العمى، فهو بيد من يقوده غالباً، فلابد إذاً من الحجر على أهل المعاصي استصلاحاً للديانة وأحوال الجماعة، وهو ألزم من الحجر الصحي لاستصلاح الأبدان.

قال ابن تيمية عن العقاب بالهجر: إن المقصود به زجر المهجور وتأديبه ورجوع العامة عن مثل حاله، فإن كانت المصلحة في ذلك راجحة بحيث يفضي

(١) التاريخ الإسلامي، ٨/ ١٣٨.

هجره إلى ضعف الشر وخفيته كان مشروعاً [١].

وهذا الهجر التربوي يختلف عن الهجر الذي يكون بين المسلمين على أمور الدنيا فهذا دنيوي وذاك ديني، فالهجر الديني مطلب شرعي يثاب عليه فاعله، أما الهجر الدنيوي فإنه مكروه إلا إذا زاد عن ثلاثة أيام فإنه يكون محرماً[٢]، لقول رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**لا يحل لمسلم أن يهجر أخاه فوق ثلاث يلتقيان فيعرض هذا ويعرض هذا وخيرهما الذي يبدأ بالسلام**» [٣]، ولقوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**من هجر أخاه سنة فهو كسفك دمه**» [٤].

التنظيم الدقيق للمجتمع الإسلامي:

يتميز المجتمع الإسلامي بالتنظيم الدقيق، والاستجابة السريعة لأوامر القيادة العليا، فقد استجاب المجتمع المسلم كله في المدينة لتنفيذ أمر المقاطعة والهجر الذي صدر من القائد الأعلى صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وامتنعوا جميعاً عن الحديث هؤلاء الثلاثة ووصف كعب لنا ذلك فقال: . . . فاجتنبنا الناس، وتغيروا لنا، حتى تنكرت في نفسي الأرض فما هي التي أعرف، فأما صاحباي فاستكانا وقعدا في بيوتهما يبكيان، وأما أنا فكنت أشب القوم وأجلدهم، فكنت أخرج فأشهد الصلاة مع المسلمين وأطوف في الأسواق، ولا يكلمني أحد[٥] . . . وقد أطلق كعب السلام على ابن عمه أبي قتادة فلم يرد عَلَيْهِ السَّلَامُ وناشده بالله مراراً: هل تعلمني أحب الله ورسوله؟ فسكت، مع أنه من أحب الناس إليه، لقد كان أبو قتادة في هذا الموقف موزَّع الفكر بين إجابة رجل حبيب إليه عزيز عليه، وبين تنفيذ أمر النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بتطبيق الهجر التربوي ولكن ليس هناك تردد بين الأمرين، فالذي أوحى به إيمان أبي قتادة هو تنفيذ أمر النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فظهر ذلك على سلوكه[٦].

وقد بلغ الالتزام بالأمر النبوي في الهجر التربوي ذروته حين أمر رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الثلاثة الذين خلفوا باعتزال زوجاتهم حتى يقضي الله أمراً كان

(١) مجموع الفتاوى، ٢٠/ ٣٢ ٣٦.
(٢) التاريخ الإسلامي، ٨/ ١٣٨.
(٣) مسلم، كتاب البر، رقم ٢٥٦٠، ص١٩٨٤.
(٤) مسند أحمد، ٤/ ٢٢٠.
(٥) الصراع مع الصليبيين، ص١٩٥.
(٦) التاريخ الإسلامي، ٨/ ١٤٠.

مفعولا فالتزم الجميع بذلك واستأذنت زوج هلال بن أمية وكان شيخاً طاعناً في السن لايجد من يخدمه فطلبت من الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن يأذن لها أن تخدمه فأذن لها النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بذلك شريطة ألا يقربها فالتزمت رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا[1].

الابتلاء بالخير والشر:

لما أرسل ملك غسان إلي كعب بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يقول له: "قد بلغني أن صاحبك قد جفاك، ولم يجعلك الله بدار هوان ولا مضيعة، فالحق بنا نواسك قال: هذا أيضاً من البلاء والشر، فسجرت لها التنور وأحرقتها فيه»[2].

ولم يكن هذا الابتلاء يحتاج إلى مجرد تفكير، بل سارع إلى حسم مادته من جذورها، وذلك بتسجيرها لأول وهلة وعدم الجواب على تلك الرسالة؛ فالأمر جد خطير، والبلاء عظيم، هكذا الصبر والعزيمة. ولهذا وذاك جاء الفرج: «حتى إذا مضت خمسون ليلة من حين نهى النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الناس عن كلامنا صليت على ظَهْر بيت لنا صلاة الفجر، ثم جلست وأنا في المنزلة التي قال الله عز وجل قد ضاقت علينا الأرض بما رحبت وضاقت علينا أنفسنا؛ إذ سمعت نداءً من ذروة سَلْع أن أبشر يا كعب بن مالك! فخررت ساجداً وعرفت أن الله قد جاءنا بالفرج»[3]. والله يقول جل وتقدس: ﴿وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾ [الأنبياء: ٣٥].

إن الابتلاء بالخير أشد وطأة وإن خُيِّل للناس أنه دون الابتلاء بالشر، إن كثيرين يصمدون للابتلاء بالشر، ولكن القلة القليلة هي التي تصمد للابتلاء بالخير.

-الولاء التام لله ورسوله:

كان العدو الصليبي يراقب ويرصد ويستغل الفرصة السانحة لكي يمزق الجبهة الداخلية ويشعل نار الفتنة بين المسلمين ليوهن البنيان ويقوض الأركان ولذلك استغل ملك غسان فرصة هجران المسلمين لكعب بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وعقوبة رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ له بأن يرسل سفيره لكعب برسالة خاصة منه إليه يغريه فيها تأمل قوله: قد بلغني أن صاحبك قد جفاك، ولم يجعلك الله بدار هوان

(١) الصراع مع الصليبيين، ص١٩٦.
(٢) البخاري، كتاب المغازي، رقم ٤٤١٨.
(٣) البخاري، كتاب المغازي، رقم ٤٤١٨.

ولامضيعة ، فالحق بنا نواسك[1] ، فكان تعليق كعب على هذه الرسالة: وهذا من البلاء أيضاً! قد بلغ مني ماوقعت فيه أن طمع فيَّ رجال من أهل الشرك! ثم أحرق الرسالة[2]

إن هذا الذنب وهذا العقاب لم يحلل كعباً من ولائه لدينه . . لعقيدته ، لم يحلله من قضيته الكبرى ، لقد نظر إلى هذا الكتاب على أنه جزء من الابتلاء . فحمل الكتاب ثم أوقد التنور وقال: " وَهَذَا أَيْضًا مِنْ الْبَلَاءِ " فأحرق الكتاب في التنور وبقي يعاني ألم القطيعة .

لقد رفض رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ هذا الود الظاهر في وقت هو فيه أحوج ما يكون إلى من يواسيه ويواليه ؛ لكن لما قام في قلبه من عظم الولاء لله ولرسوله ، والبراءة من أعداء الدين ؛ رفض هذه الدعوة التي كشفت له بصيرته ما وراءها ، فرفضها وعدها بلاء آخر فكانت عقباه الخير .

علمتنا هذه القصة أن الأمة حين تربي أبناءها وفق شرع ربها ، وحين تبني في نفوسهم صرح الإيمان ، وحين تغرس في قلوبهم نبتة الإخلاص لله ولدينه ؛ فإن قوى الأرض وإن هزمتهم في وقت ظاهرا لن تهزمهم في بواطنهم ، ولن تفلح في تركيعهم ، ولن تنال من عزتهم ، ولن تقوى على تغيير مبادئهم .

- صدق الإخوة في الله:

من أثمن ما يملكه المسلم في هذه الحياة الدنيا بعد الصلة بالله عقد الأخوة الإيمانية الذي عقده مع من يحبهم في الله ، وتعاهد معهم على العمل سوية في سبيل نصرة دين الله . هذا العقد من أقوى الأسباب لمجابهة الصعاب والتحديات ، ولحل المشكلات التي تعترض الطريق ، وبه يشعر المسلم أنه ليس وحيدا ، فهناك من يشد أزره ويضع يده على يده ، فعندما نزلت الآيات الكريمة التي بينت توبة الله على هؤلاء الثلاثة كان ذلك اليوم من الأيام العظيمة عند المسلمين ظهرت فيه الفرحة على وجه رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حتى استنار كأنه قطعة قمر ، وظهرت الفرحة على وجوه الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ حتى صاروا يتلقون كعباً وصاحبيه أفواجاً يهنئونهم بما تفضل الله به عليهم من التوبة وجاء كعب إلى النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ووجهه يبرق من السرور فقال له: «**أبشر بخير يوم مر عليك منذ ولدتك أمك**» .

---

(١) البخاري ، كتاب المغازي ، رقم ٤٤١٨ .
(٢) المغازي ، ٣/ ١٠٥١ - ١٠٥٢ .

وفرحة الحبيب محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ والصحابة بتوبة المولي عز وجل علي كعب لدليل واضح علي صدق الإخوة في الله التي تربط الصحابة رضوان الله عليهم ببعض البعض وبالحبيب محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ .

تبشير الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كعب:

والتبشير بالخير والشيء الطيب السار والأمر المفرح من السنة ، وهو من الآداب الإسلامية العظيمة ، والبشارة تكون في الأمور التي تسر وسميت بذلك لأن الإنسان كان إذا بشر بما يسره ظهر أثر ذلك في وجهه وفي بشرته ، قال كعب: فلما سلمت على رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: وهو يبرق وجهه من السرور ، ويقول: «**أبشر بخير يوم مر عليك منذ ولدتك أمك**» [1] .

وفيه دليل على جواز التهنئة والتبشير بأمور الخير بل على ندبها إذا كانت دينية فإنها إظهار السرور بما يسر به أخوه المسلم وإظهار المحبة وتصفية القلب بالمودة .

- تشرع أنواع من العبادات شكرا لله عند النعمة:

كانت فرحة كعب بن مالك بتوبة الله - سبحانه وتعالى - عليه ، لا تحدها حدود ولا تصورها مثل ، وقد تفنن هو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في التعبير عنها بجملة من العبادات منها:

١ - سجود الشكر:

حينما سمع كعب البشارة بتوبة الله عليه خرّ ساجداً من فوره شكراً لله - تبارك وتعالى - ، فقد كان من عادة الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ أن يسجدوا شكراً لله تعالى كلما تجددت لهم نعمة أو انصرفت عنهم نقمة وقد تعلموا ذلك من رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ .

٢ - مكافأة الذي يحمل البشرى:

فقد نزع كعب ثوبيه اللذين كان يلبسهما ، فكساهما الذي سمع صوته بالبشرى ، وما كان يملك وقتئذ غيرهما ، ثم استعار ثوبين ، فلبسهما ، ولاشك أن هذا ضرب من الهبة المشروعة ، فإن كان المبشر غنياً كان له هدية ، وإن كان فقيراً كان له صدقة ، وكلاهما إخراج المال شكراً لله تعالى ، على إنزاله الفرج .

---

(١) أنخلع من مالي: أتصدق به .

٣- التصدق بالمال:

فقد جعل كعب من توبته أن ينخلع من ماله صدقة لله تعالى لكنه عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ لم يتقبل منه التصدق بجميع ماله، وقال له: أمسك عليك بعض مالك، فهو خير لك، وكأنه يستشيره بذلك، فكانت المشورة بإمساك بعض ماله[١].

قيام الرسول صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على دفن ذي البجادين[٢] رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ:

قال عبدالله بن مسعود رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: قمت من جوف الليل، وأنا مع رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في غزوة تبوك، قال: فرأيت شعلة من نار في ناحية العسكر، قال: فاتبعتها، أنظر إليها، فإذا رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأبو بكر وعمر، وإذا عبد الله ذو البجادين المزني قد مات، وإذا هم قد حفروا له، ورسول صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في حفرته، وأبو بكر وعمر يدليانه إليه، وهو يقول: «**أدنيا إلى أخاكما، فدلياه إليه**»، فلما هيأه بشقة، قال: «**اللهم إني أمسيت راضياً عنه، فارض عنه**». قال عبد الله بن مسعود: يا ليتني كنت صاحب الحفرة[٣].

هذه صورة من البر والتكريم فريدة يتيمة، لن تجد في تاريخ الملوك والحكام، من يبرُّ ويتواضع إلى هذا المستوى، إلى حيث يوسد الحاكم فرداً من رعيته بيده في مثواه الأخير، ثم يلتمس له المرضاة من رب العالمين، أما هو فقد أعلن أنه أمسى راضياً عنه[٤].

وإذا تأملنا قول عبدالله بن مسعود رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ حينما سمع رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول بحق ذي البجادين: اللهم إني أمسيت عنه راضياً فارضى عنه، فقال ابن مسعود: يا ليتني كنت صاحب اللحد[٥].

---

(١) صور وعبر من الجهاد النبوي، ص٤٩٣.

(٢) البجاد: الكساء الغليظ الجافي. وإنما سمى ذو البجادين، لأنه كان ينازع إلى الإسلام فيمنعه قومه من ذلك ويضيقون عليه، حتى تركوه في بجاد، ليس عليه غيره فهرب منهم إلى رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فلما كان قريباً منه، شق بجاده باثنين، فائتزر بواحد واشتمل بالآخر، ثم أتى رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فقيل له: ذو البجادين، لذلك. السيرة النبوية لابن هشام، ٤/ ١٨٢.

(٣) صحيح السيرة النبوية، ص٥٩٨.

(٤) صور وعبر من الجهاد النبوي في المدينة، ص٤٧٢.

(٥) صحيح السيرة النبوية، ص٥٩٨.

نجد أنها كلمة كل مؤمن آمن بالله واليوم الآخر، ووقف موقفه ذاك فقد عرفوا أين تكون ميادين التنافس[1].

وهي تعبير عن الغبطة والتي هي تمنى حصول الخير لك كما حصل لغيرك من إخوانك وهذا عكس الحسد، إذ الحسد تتمنى زوال النعمة عن غيرك والحسد كله شر كما ترى، أما الغبطة فلا تكون إلا في الخير[2].

معجزات علي طريق الغزوة:

- ﴿وَإِنْ يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لَا يُؤْمِنُوا بِهَا﴾. قال محمود بن لبيد: لقد أخبرني رجال من قومي، عن رجل من المنافقين معروف نفاقه، كان يسير مع رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حيث سار، فلما كان من أمر الناس بالحجر ماكان، ودعا رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حين دعا، فأرسل الله السحابة، فأمطرت حتى ارتوى الناس، قالوا: أقبلنا عليه ونقول: ويحك! هل بعد هذا الشيء؟ قال: سحابة مارة[3].

لما جاوز النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حجر ثمود، أصبح الناس ولا ماء لهم، فشكوا ذلك إلى رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فدعا رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ربه، واستسقى لمن معه من المسلمين، فأرسل الله - سبحانه وتعالى - سحابة فأمطرت حتى ارتوى الناس، واحتملوا حاجتهم من الماء، وبالرغم من أن هذه معجزة تأكد الصحابة رضوان عليهم أنها معجزة، إلا أن المنافقين لم يعترفوا بذلك وصدق فيهم قوله المولي عز وجل: ﴿وَإِنْ يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لَا يُؤْمِنُوا بِهَا﴾ [الأعراف: ١٤٦].

- ناقة رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

لما كان رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سائراً في طريقه إلى تبوك، ضلت ناقته، فخرج أصحابه في طلبها، وعند رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ رجل من أصحابه، يقال له: عُمارة بن حزم وكان عقبياً بدرياً، وهم عم بني عمروبن حزم، وكان في رحله زيد بن اللُصيت القينقاعي، وكان منافقاً.

قال زيد بن اللُصيت وهو في رحل عمارة، وعُمارة عند رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: أليس محمد يزعم أنه نبي؟ ويخبركم عن السماء، وهو لايدري أين ناقته؟ فقال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وعُمارة عنده: إن رجلاً قال: هذا محمد

(١) معين السيرة، ص٤٥٢.
(٢) الصراع مع الصليبين، ص١٦٣، ١٦٤.
(٣) السيرة النبوية لابن هشام، ٤/ ١٧٦.

يخبركم أنه، ويزعم أنه يخبركم بأمر السماء وهو لايدري أين ناقته؟ وإني والله ما أعلم إلا ما علمني الله، وقد دلني الله عليها، وهي في هذا الوادي، في شعب كذا وكذا، قد حبستها شجرة بزمامها، فانطلقوا حتى تأتوني بها، فذهبوا فجاؤوا بها، فرجع عمارة بن حزم إلى رحله، فقال: والله لعجب من شيء حدَّثناه رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ آنفاً، عن مقالة قائل، أخبره الله عنه بكذا وكذا، للذي قال زيد ابن اللصيت. فقال رجل ممن كان في رحل عمارة، ولم يحضر رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: زيد، والله، قال هذه المقالة قبل أن تأتي فأقبل عمارة على زيد، يجأ في عنقه (يطعنه فيه) ويقول: إليّ عباد الله، إن في رحلي لداهية، وما أشعر، أخرج، ايْ عدو الله[1] من رحلي، فلا تصحبني. قال ابن إسحاق: فزعم بعض الناس أن زيداً تاب بعد ذلك، وقال بعض الناس: لم يزل متَّهماً بشرٍّ حتى هلك[2].

- التحذير من هبوب ريح شديدة:

وفي الطريق أو لما بلغ تبوك - على اختلاف الروايات - قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**تهب عليكم الليلة ريح شديدة فلا يقومن أحد، ومن كان له بعير فليوثق عقاله، ولا يخرجن أحد منكم إلا ومعه صاحب له**»، ففعل الناس ما أمرهم به رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلا رجلين من بني ساعدة، خرج أحدهما لحاجته والآخر في طلب بعيره، فأما الذي خرج لحاجته فانه خنق على مذهبه - أي موضعه - وأما الذي خرج في طلب بعيره فاحتملته الريح حتى طرحته بجبلي طيئ، فاخبر بذلك رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فقال: «**ألم أنهكم عن أن يخرج منكم أحد إلا ومعه صاحبه**» ثم دعا للذي أصيب على مذهبه فشفي، وأما الآخر طيئا أهدته لرسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حين رجع إلى المدينة[3].

- تكثير ماء عين تبوك:

قال معاذ بن جبل رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**إنكم ستأتون**

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام، ٤/ ١٧٧.

(٢) السيرة النبوية لابن هشام، ٤/ ١٧٧.

(٣) أخرجه البخاري، ٨ / ١٢٥ (٤٤١٩)، ومسلم، ٤ / ٢٢٨٦ (٣٨، ٣٩ / ٢٩٨٠)، وأحمد ٢ / ٩، ٥٨، ٧٢، ٧٤، ١١٣، ١٣٧، والبيهقي في الدلائل، ٥ / ٢٣٣، وفي السنن ٢ / ٤٥١، والحميدي، (٦٥٣)، وعبد الرزاق، (١٦٢٥)، والطبراني في الكبير، ١٢ / ٤٥٧، وانظر الدر المنثور، ٤ / ١٠٤.

غداً إن شاء الله عين تبوك وإنكم لن تأتوها حتى يضحى النهار، فمن جاءها منكم فلا يمس من مائها شيئاً حتى آتي»، فجئناها وقد سبقنا إليها رجلان، والعين مثل الشراك[1]، تنبض[2] بشيء من ماء، فسألهما رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**هل مستما من مائها شيئاً؟**» قالا: نعم، فسبهما النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وقال لهما ماشاء الله أن يقول، ثم غرفوا بأيديهم من العين قليلاً قليلاً حتى اجتمع في شيء، وغسل رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فيه يديه ووجهه، ثم أعاده فيها فجرت العين بماء منهمر أو غزير حتى استقى الناس[3].

وقد قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لمعاذ بن جبل: «**يوشك يامعاذ إن طالت بك حياة أن ترى ماهاهنا قد ملئ جناناً**»[4].

لقد كانت منطقة تبوك والوادي الذي كانت فيه العين منطقة جرداء لقلة الماء ولكن الله - عز وجل - أجرى على يد رسوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بركة تكثير هذا الماء حتى أصبح يسيل بغزارة، ولم يكن هذا آتياً لسد حاجة الجيش، بل أخبر رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بأنه سيستمر وستكون هناك جنان وبساتين مملوءة بالأشجار المثمرة ولقد تحقق ما أخبر به الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بعد فترة قليلة من الزمن، ولازالت تبوك حتى اليوم تمتاز بجنانها وبساتينها ونخيلها وتمورها، تنطق بصدق نبوة الرسول وتشهد بأن الرسول لايتكلم إلا صدقاً ولايخبر إلا حقاً ولاينبئ بشيء إلا ويتحقق[5].

-تكثير الطعام:

(عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: لما كانت غزوة تبوك أصاب النّاس مجاعة قالوا: يا رسول الله لو أذنت لنا فنحرنا نواضحنا[6] فأكلنا وادّهنّا[7]. فقال

---

(١) الشراك: هو سير النعل ومعناه ماء قليل جداً.

(٢) تنبض: بفتح التاء وكسر الموحدة وتشديد الضاد ومعناه تسيل.

(٣) صحيح مسلم بشرح النووي، ١٥/ ٤١؛ مختصر مسلم، رقم ١٥٣٠.

(٤) الجنان: جمع جنة وهي المزارع والبساتين، أخرجه مسلم ٤ / ١٧٨٤ - ١٧٨٥ حديث (١٠ / ٧٠٦) وأحمد ٥ / ٢٣٨ وابن حبان ذكره الهيثمي في الموارد (٥٤٩)، والبيهقي في الدلائل ٥ / ٢٣٦ وابن خزيمة (٩٦٨) ومالك في الموطأ ١٤٤، وانظر كنز العمال (٣٥٣٩٨).

(٥) الصراع مع الصليبيين، ص١٤٢.

(٦) النواضح: من الإبل التي يستقى عليها.

(٧) ادّهنّا: أي اتخذنا دهنا من شحومها.

رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «افعلوا» . قال فجاء عمر فقال: يا رسول الله إن فعلت قلّ الظّهر [١] ولكن ادعهم بفضل أزوادهم [٢] ، ثمّ ادع الله لهم عليها بالبركة لعلّ الله أن يجعل في ذلك [٣] . فقال رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «نعم» . قال: فدعا بنطع [٤] فبسطه ثمّ دعا بفضل أزوادهم ، قال: فجعل الرّجل يجيء بكفّ ذرة ، قال ويجيء الآخر بكفّ تمر ، قال ويجيء الآخر بكسرة ، حتّى اجتمع على النّطع من ذلك شيء يسير .

قال فدعا رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ عليه بالبركة ، ثمّ قال: «**خذوا في أوعيتكم**» قال: فأخذوا في أوعيتهم حتّى ما تركوا في العسكر وعاء إلّا ملؤوه قال فأكلوا حتّى شبعوا ، وفضلت فضلة ، فقال رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «**أشهد أن لا إله إلّا الله، وأنّي رسول الله، لا يلقى الله بهما عبد غير شاكّ فيحجب عن الجنّة**»[٥] .

ومن هذا الحديث نتعلم:

- التربية على الأخذ بالأسباب .
- عمق تلك التربية .
- المشورة وقبولها .
- التراجع عن القرار ليس ضعفاً في القيادة .
- كثرة البذل والتضحية مع قلة الإمكانات فكيف بالعكس؟
- أهمية الربط بما يقوي الإيمان رغم حصول ما يستدعي ذلك فكيف في غير هذا الموطن؟
- الإيمان بالمعجزات .
- عظم البركة والدعاء بها .
- قوة الضبط والتنفيذ في الجيش المسلم .

هذه بعض المعجزات والكرامات التي أظهرها الله على يد رسول الله

---

(١) الظهر: الدواب .

(٢) أزوادهم: جمع زاد وهي لا تملأ إنما تملأ بها أوعيتهم .

(٣) لعلّ الله أن يجعل في ذلك: فيه محذوف تقديره يجعل في ذلك بركة أو خيرا ، أو نحو ذلك .

(٤) نطع: هو بساط متخذ من أديم .

(٥) الحديث في صحيح مسلم في الايمان حديث ٤٥ ، ١ / ٥٦ .

صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في غزوة تبوك تدل على صدق نبوته ورسالته وتدل على رفعة منزلته وتكريمه عند ربه[1].

أهم نتائج الغزوة:

- إسقاط هيبة الروم من نفوس العرب جميعاً مسلمهم وكافرهم على السواء، لأن قوة الروم كانت في حس العرب لاتقاوم ولاتُغْلب، ومن ثم فقد فزعوا من ذكر الروم وغزوهم، ولعل ما حدث للمسلمين في غزوة (مؤتة) كان مؤكداً على ماترسخ في ذهن العربي في جاهليته من أن الروم قوة لاتقهر، فكان لابد من هذا النفير العام لإزاحة هذه الهزيمة النفسية من نفوس العرب.

- إظهار قوة الدولة الإسلامية كقوة وحيدة في المنطقة قادرة على تحدي القوى العظمى عالمياً - حينذاك - ليس بدافع عصبي أو عرقي، أو تحقيق أطماع زعامات معاصرة، وإنما بدافع تحريري حيث تدعو الإنسانية إلى تحرير نفسها من عبودية العباد إلى عبودية رب العباد ولقد حققت هذه الغزوة الغرض المرجو منها بالرغم من عدم الاشتباك الحربي مع الروم الذين آثروا الفرار شمالاً فحققوا انتصاراً للمسلمين دون قتال، حيث أخلوا مواقعهم للدولة الإسلامية، وترتب على ذلك خضوع النصرانية التي كانت تمت بصلة الولاء لدولة الروم مثل إمارة دومة الجندل، وإمارة إيلة (مدينة العقبة حاليا على خليج العقبة) وكتب رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بينه وبينهم كتاباً يحدد مالهم وما عليهم[2] وأصبحت القبائل العربية الشامية الأخرى التي لم تخضع للسيطرة الإسلامية في تبوك تتعرض بشدة للتاثير الإسلامي، وبدأ الكثير من هذه القبائل يراجع موقفه ويقارن بين جدوى الاستمرار في الولاء للدولة البيزنطية أو تحويل هذا الولاء إلى الدولة الإسلامية الناشئة، ويعد ماحدث في تبوك نقطة البداية العملية للفتح الإسلامي لبلاد الشام[3]، وإن كانت هناك محاولات قبلها ولكنها لم تكن في قوة التأثير كغزوة تبوك، فقد كانت هذه الغزوة بمثابة المؤشر لبداية عمليات متواصلة لفتح البلدان والتي واصلها خلفاء رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من بعده، ومما يؤكد هذا أن الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قبل موته جهّز جيشاً بقيادة أسامة بن زيد بن حارثة ليكون رأس حربة موجَّهة صوب الروم، وطليعة لجيش الفتح، ضم هذا الجيش جُلَّ

(١) انظر: الصراع مع الصليبيين، ص١٤١.
(٢) الشجاع، دراسات في عهد النبوة والخلافة الراشدة، ص٢٠٩.
(٣) عبدالرحمن أحمد، المسلمون والروم في عصر النبوة، ص١٢٠.

صحابة رسول الله ولكنه لم يقم بمهمته إلا بعد وفاته صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ومع هذا فقد حقق الهدف المطلوب منه [1].

لقد وضع رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الأسس الأولى والخطوات المثلى لفتح بلاد الشام والفتوحات الإسلامية.

-توحيد الجزيرة العربية تحت حكم الرسول:

تأثر موقف القبائل العربية من الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ والدعوة الإسلامية بمؤثرات متداخلة كفتح مكة، وخيبر وغزوة تبوك، فبادر كل قوم بإسلامهم بعد ما امتد سلطان المسلمين إلى خطوط التماس مع الروم ثم مصالحة نجران في الأطراف الجنوبية على أن يدفعوا الجزية، فلم يعد أمام القبائل العربية إلا المبادرة الشاملة إلى اعتناق الإسلام والالتحاق بركب النبوة بالسمع والطاعة، ونظراً لكثرة وفود القبائل العربية التي قدمت إلى المدينة من أنحاء الجزيرة العربية بعد عودة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من غزوة تبوك لتعلن إسلامها هي ومن وراءها فقد سُمِّيَ العام التاسع للهجرة في المصادر الإسلامية بعام الوفود[2].

دروس وعبر من غزوة تبوك:

ولئن انتهت غزوة تبوك، فما انتهى نورها، وما انتهت دروسها وعبرها ومواعظها، ففي كل حديث منها قصة، وفي كل قصة عظة وعبرة، فهاكم بعض دروسها وعبرها:

- أن هذه الأمة أمة جهاد، ومجاهدة، وصبر، ومصابرة، ومتى ما تركت الجهاد، ضُربت عليها الذلة والمسكنة.

دعِ المِداد وسطّر بالدَّمِ القاني ::: وأسكتِ الفَمَ واخطبْ بالفمِ الثّاني
فَمُ المدافعِ في صدرِ العداة لهُ ::: منَ الفصاحةِ ما يُذري بسحبانِ

- أن الله تعالى، كتب العزة والقوة لهذه الأمة، متى ما صدقت وأخلصت، فها هي دولة الإسلام الناشئة، تقف في وجه الكفر كله بقواه المادية فتهزمه، وتنتصر عليه: ﴿وَلَيَنْصُرَنَّ اللهُ مَنْ يَنْصُرُهُ...﴾ [الحج: ٤٠].

- أنه ما تسلل العدو سابقاً ولاحقاً إلا من خلال الصفوف المنافقة، ولم يكن الضعف والتفرقة في هذه الأمة، إلا من قِبَل أصحاب المسالك الملتوية: ﴿لَوْ

(١) الشجاع، دراسات في عهد النبوة، ص٢٠٩.
(٢) موسوعة نضرة النعيم ١/ ٣٩٥، ٣٩٦.

خَرَجُوا فِيكُمْ مَا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَأَوْضَعُوا خِلَالَكُمْ يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَّاعُونَ لَهُمْ...﴾ [التوبة: ٤٧].

- إن ممارسة الشورى في حياة الأمة في كل شؤونها السياسية والعسكرية والاجتماعية... منهج تربوي كريم سار عليه الحبيب المصطفى صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في حياته، وقد مارس رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في هذه الغزوة الشورى وقبل مشورة الصدِّيق والفاروق في بعض المواقف التي حدثت في الغزوة ومنها:

- قبول مشورة أبي بكر الصديق في الدعاء حين تعرض الجيش لعطش شديد: فقد قال عمر بن الخطاب: خرجنا إلى تبوك في قيظ شديد فنزلنا منزلا وأصابنا فيه عطش حتى ظننا أن رقابنا ستنقطع، حتى إن الرجل لينحر بعيره فيعتصر فرثه فيشربه، ثم يجعل ما بقي على كبده، فقال أبو بكر الصديق: يا رسول الله، إن الله قد عودك في الدعاء خيرا، فادع الله، قال: «**أتحب ذلك؟**» قال: نعم، فرفع يديه فلم يردهما حتى حالت السماء فأظلت ثم سكبت فملؤوا ما معهم، ثم ذهبنا ننظر فلم نجدها جاوزت العسكر[1].

- قبول مشورة عمر بن الخطاب في ترك نحر الإبل حين أصابت الجيش مجاعة: فقد أصابت جيش العسرة مجاعة أثناء سيرهم إلى تبوك، فاستأذنوا النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في نحر إبلهم حتى يسدوا جوعتهم، فلما أذن لهم النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في ذلك جاءه عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فأبدى مشورته في هذه المسألة، وهي أن الجند إن فعلوا ذلك نفدت رواحلهم وهم أحوج ما يكونون إليها في هذا الطريق الطويل، ثم ذكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ حلا لهذه المعضلة وهو: جمع أزواد القوم ثم الدعاء لهم بالبركة فيها، فعمل صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بهذه المشورة حتى صدر القوم عن بقية من هذا الطعام بعد أن ملؤوا أوعيتهم منه وأكلوا حتى شبعوا.

- قبول مشورة عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في ترك اجتياز حدود الشام والعودة إلى المدينة: عندما وصل النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلى منطقة تبوك وجد أن الروم فروا خوفًا من جيش المسلمين، فاستشار أصحابه في اجتياز حدود الشام، فأشار عليه عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بأن يرجع بالجيش إلى المدينة وعلل رأيه بقوله: إن للروم جموعا كثيرة وليس بها أحد من أهل الإسلام، ولقد كانت مشورة مباركة؛ فإن القتال داخل بلاد الرومان يعد أمرًا صعبًا، إذ إنه يتطلب تكتيكًا خاصًا لأن الحرب في

(١) أخرجه ابن حبان، كتاب الجهاد، باب غزوة تبوك، رقم ١٧٠٧.

الصحراء تختلف في طبيعتها عن الحرب في المدن، بالإضافة إلى أن عدد الرومان في الشام يقرب من مائتين وخمسين ألفا، ولا شك في أن تجمع هذا العدد الكبير في تحصنه داخل المدن يعرض جيش المسلمين للخطر[1].

- أن مواجهة الأعداء، لا يشترط فيها تكافؤ القوى: يكفي المؤمنين أن يعدُّوا أنفسهم بما استطاعوا من قوة، ثم يثقوا بالله، ويتعلقوا به، ويثبتوا، ويصبروا، وعندها يُنصروا، فها هو سلفهم ابن رواحة يقول: "والله ما نقاتل الناس بعَدد، ولا عُدد، وما نقاتلهم إلا بهذا الدين الذي كرمنا الله به"[2].

فيا أمة الإسلام في كل زمان ومكان اتقوا الله، وأجمعوا أمركم، وذُودوا عن دينكم ومحارمكم؛ فإن من لا يذود عن دينه ومحارمه ولا ينتصر لدينه؛ ذليل حقير، غير حقيق بالعزة؛ بل لا تحلو له الحياة، اصبروا، وصابروا، ورابطوا، وبما تمسك به أسلافكم تمسكوا، جاهدوا كجهادهم، واصبروا كصبرهم، وتوكلوا على الله، وثقوا بالله واطمئنوا، وأبشروا، والعاقبة للمتقين: ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ * إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنْصُورُونَ * وَإِنَّ جُنْدَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ﴾ [الصافات: ١٧١ - ١٧٣].

"خذوا إيمان إبراهيم، تنبت لكم في النار جنات النعيم".

وبانتهاء هذه الغزوة المباركة ينتهي الحديث عن غزوات النبي ﷺ التي قادها بنفسه، فقد كانت حياته المباركة غنية بالدروس والعبر التي تتربى عليها أمته في أجيالها المقبلة[3]

سرية جرير بن عبدالله البجلي إلى ذي الخلصة:

وكان من نتائج حركة الوفود التي شهدها العام التاسع من الهجرة أن بدأت حملة توعية واسعة النطاق في المناطق النائية التي تحتاج إلى ذلك، فقد كانت الوفود تسعى إلى المدينة لتعلن إسلامها وتنضوي تحت سيادة الدولة الإسلامية ويتعلمون ما شاء الله أن يتعلموه في المدينة قبل رجوعهم إلى موطنهم، وكان ﷺ يرسل معهم من يعلمهم دينهم، وشرع ﷺ يبعث دعاته في شتى الجهات واهتم بجنوب الجزيرة حيث قبائل اليمن لتعليمها مبادئ الإسلام

(١) غزوة تبوك، باشميل، ص١٧٦، ١٧٧.
(٢) ابن هشام - السيرة ٣/ ٤٣٥ - ٤٤٢.
(٣) صادق عرجون، محمد رسول الله، ٤/ ٤٦٠.

وأحكامه فقد انتشر أمر الإسلام في الجزيرة ومختلف أطرافها، وأصبحت الحاجة داعية إلى معلمين ودعاة ومرشدين يشرحون للناس حقائق الإسلام لكي تتطهر قلوبهم وتشفى صدورهم من أمراض الجاهلية وأدرانها الخبيثة [1] فقد ثبت إرسال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ معاذ بن جبل وأبا موسى الأشعري إلى اليمن كلا منهما إلى جهة [2]، كما بعث النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سرية من مائة وخمسين راكبا عليهم جرير بن عبد الله البجلي فكسروا الصنم ذا الخلصة في الكعبة اليمانية وقتلوا من كان عنده، فدعا لهم الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وكان من تفصيلها، أن جرير بن عبدالله قال: قال لي رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**ألا تريحني من ذي الخلصة؟**» فقلت: بلى، فانطلقت في خمسين ومائة فارس من أحمس وكانوا أصحاب خيل، وكنت لاأثبتُ على الخيل، فذكرت ذلك للنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فضرب يده على صدْري حتى رأيت أثر يده في صدري فقال: «**اللهم ثبته واجعله هادياً مهدياً**». قال: فما وقعت عن فرسي بعد، قال وكان ذو الخلصة بيتاً باليمن لخشعم وبجيلة، فيه نصب يقال له: الكعبة، قال: فأتاها فحرّقها بالنار وكسرها، قال: ولما قدم جرير اليمن كان بها رجل يستقسم بالأزلام فقيل له إن رسول رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هاهنا فإن قدر عليك ضرب عنقك قال: فبينما هو يضرب بها إذ وقف عليه جرير فقال: لتكسرنها ولتشهدوا أن لا إله إلا الله أو لأضربن عنقك قال: فكسرها وشهد ثم بعث جرير رجُلاً من أحمس يُكنى أبا أرطاة إلى النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يبشره بذلك فلّما أتى النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: يا رسول الله والذي بعثك بالحق ما جئت حتى تركتها كأنها جمل أجرب قال: فبرّك النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على خيل أحمس ورجالها خمس مرّات [3].

حج أبي بكر بالناس:

كان النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قد اعتمر بعد الفراغ من حصار الطائف حيث أهلّ بالعمرة من الجعرانة، ثم عاد بالجيش إلى المدينة، وقد حج المسلمون والمشركون معا عام الفتح، ثم أمّر أبا بكر (رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ) على الحج في العام التاسع الهجري، فخرج في ذي الحجة إلى مكة ومعه عدد كبير من الصحابة [4]، وساقوا

(١) فقه السيرة للبوطي، ص٣٢٢.
(٢) سبق الحديث عن تفاصيل ذلك عند الحديث عن عام الوفود... فليراجع.
(٣) البخاري، المغازي، ٥/ ١٣٢، رقم ٤٣٥٧.
(٤) ابن سعد، الطبقات الكبرى، ٢/ ١٦٨، ابن حجر، فتح الباري، ٨/ ٨٢.

معهم الهدي [1].

فلما خرج الصديق بركب الحجيج نزلت سورة براءة، فدعا النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ علياً رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وأمره أن يلحق بأبي بكر الصديق، فخرج على ناقة رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: العصباء حتى أدرك الصديق أبا بكر بذي الحليفة، فلما رآه الصديق قال له: أمير أم مأمور؟ فقال: بل مأمور، ثم سارا، فأقام أبو بكر للناس الحج على منازلهم التي كانوا عليها في الجاهلية، وكان الحج في هذا العام في ذي الحجة كما دلت على ذلك الروايات الصحيحة لا في شهر ذي القعدة كما قيل، وقد خطب الصديق قبل التروية، ويوم عرفة، ويوم النحر، ويوم النفر الأول فكان يعرف الناس مناسكهم: في وقوفهم وإفاضتهم، ونحرهم، ونفرهم، ورميهم للجمرات... الخ وعلي يخلفه في كل موقف من هذه المواقف، فيقرأ على الناس صدر سورة براءة ثم ينادي في الناس بهذه الأمور الأربعة: لايدخل الجنة إلا مؤمن، ولايطوف بالبيت عريان، ومن كان بينه وبين رسول الله عهد فعهده إلى مدته، ولايحج بعد العام مشرك[2].

وقد أمر الصدِّيق أبا هريرة في رهط آخر من الصحابة لمساعدة علي بن أبي طالب في إنجاز مهمته[3].

إن نزول صدر سورة براءة يمثل مفاصلة نهائية مع الوثنية، وأتباعها، حيث منعت حجهم وأعلنت الحرب عليهم[4].

قال تعالى: ﴿بَرَاءَةٌ مِنَ اللهِ وَرَسُولِهِ إِلَى الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ * فَسِيحُوا فِي الأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللهِ وَأَنَّ اللهَ مُخْزِي الْكَافِرِينَ * وَأَذَانٌ مِنَ اللهِ وَرَسُولِهِ إِلَى النَّاسِ يَوْمَ الْحَجِّ الأَكْبَرِ أَنَّ اللهَ بَرِيءٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ فَإِنْ تُبْتُمْ فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللهِ وَبَشِّرِ الَّذِينَ كَفَرُوا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [التوبة: ١ - ٣].

وقد أمهل المعاهدون لأجل معلوم منهم إلى انتهاء مدتهم فقال تعالى: ﴿إِلا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنْقُصُوكُمْ شَيْئًا وَلَمْ يُظَاهِرُوا عَلَيْكُمْ أَحَدًا فَأَتِمُّوا إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَى مُدَّتِهِمْ إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ﴾ [التوبة: ٤].

---

(١) ابن حجر، فتح الباري، ٨/ ٨٢.
(٢) صحيح السيرة النبوية، ص٦٢٥.
(٣) السيرة النبوية لأبي شهبة، ٢/ ٥٣٧.
(٤) انظر: موسوعة نظرة النعيم، ١/ ٣٩٩.

كما أمهل من لاعهد له من المشركين إلى انسلاخ الأشهر الحرم، حيث يصبحون بعدها في حالة حرب مع المسلمين قال تعالى: ﴿فَإِذَا انْسَلَخَ الْأَشْهُرُ الْحُرُمُ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَاحْصُرُوهُمْ وَاقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَءَاتَوُا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ إِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [التوبة: ٥].

وقد كلف النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ علياً بإعلان نقض العهود على مسامع المشركين في موسم الحج مراعات لما تعارف عليه العرب فيما بينهم في عقد العهود ونقضها أن لا يتولى ذلك إلا سيد القبيلة أو رجل من رهطه، وهذا العرف ليس فيه منافاة للإسلام فلذلك تدارك النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الأمر وأرسل علياً بذلك فهذا هو السبب في تكليف علي بتبليغ صدر سورة براءة لا ما زعمته الرافضة من أن ذلك للإشارة إلى أن علياً أحق بالخلافة من أبي بكر وقد علق على ذلك الدكتور محمد أبو شهبة فقال: ولا أدري كيف غفلوا عن قول الصديق له: أمير أم مأمور[1]؟ وكيف يكون المأمور أحق بالخلافة من الأمير. وقد كانت هذه الحجة بمثابة التوطئة للحجة الكبرى وهي حجة الوداع[2].

لقد أعلن في حجة أبي بكر أن عهد الأصنام قد انقضى، وأن مرحلة جديدة قد بدأت، وما على الناس إلا يستجيبوا لشرع الله تعالى، فبعد هذا الإعلان الذي انتشر بين قبائل العرب في الجزيرة، أيقنت تلك القبائل أن الأمر جد، وأن عهد الوثنية قد انقضى فعلاً فأخذت ترسل وفودها معلنة إسلامها ودخولها في التوحيد[3].

حجة الوداع:

بعد أن بلَّغ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ البلاغ المبين وأدى الأمانة، ونصح الأمة، وجاهد في الله حق جهاده، أعلن في الناس وأذَّن فيهم وأعلمهم أنه حاج في السنة العاشرة - بعد أن مكث في المدينة تسع سنين كلها معمورة بالجهاد والدعوة والتعليم أعلن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عزمه على أداء فريضة الحج - وهي الحجة الوحيدة التي أداها بعد هجرته إلى المدينة[4] - وهذا الإعلان الذي قصد به صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إبلاغ

(١) صحيح السيرة النبوية، ص٦٢٤.
(٢) السيرة النبوية لأبي شهبة، ٢/ ٥٤٠.
(٣) قراءة سياسية للسيرة النبوية، ص٢٨٣.
(٤) مسلم، الصحيح، ٢/ ١٨٨٧، الحديث ١٢١٨.

الناس فريضة الحج، ليتعلموا المناسك منه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ وليشهدوا أقواله، وأفعاله، ويوصيهم ليبلغ الشاهد الغائب، وتشيع دعوة الإسلام، وتبلغ الرسالة القريب والبعيد[1]. فقدم المدينة عدد كبير من المسلمين وفدوا من مختلف أنحاء جزيرة العرب للحج معه، والاقتداء بهديه، قال جابر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: إن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مكث تسع سنين لم يحج ثم أذَّن في الناس في العاشرة أن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حاجٌّ، فقدم المدينة بشر كثير كلهم يلتمس أن يأتم برسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ويعمل مثل عمله . . .[2].

وقد تهيأ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ للخروج من المدينة في الخامس والعشرين من ذي القعدة من السنة العاشرة للهجرة[3]، فترجَّل وادَّهَنَ ولبس إزاره ورداءه وقلَّد بُدْنَه، وانطلق بعد الظهر، حتى بلغ ذا الحُلَيْفة قبل أن يصلي العصر، فصلاها ركعتين، وبات هناك حتى أصبح. فلما أصبح قال لأصحابه: «**أتاني الليلة آت من ربي فقال: صَلِّ في هذا الوادي المبارك وقل: عمرة في حجة**»[4].

وقبل أن يصلي الظهر اغتسل لإحرامه، ثم طيبته عائشة بيدها بذَرِيرَة وطيب فيه مِسْك، في بدنه ورأسه، حتى كان وَبِيصُ الطيب يري في مفارقه ولحيته، ثم استدامه ولم يغسله، ثم لبس إزاره ورداءه، ثم صلي الظهر ركعتين، ثم أهل بالحج والعمرة في مُصَلاَّه، وقَرَن بينهما، ثم خرج، فركب القَصْوَاءَ، فأهَلَّ أيضاً، ثم أهَلَّ لما استقلت به على البَيْدَاء[5].

ثم واصل سيره حتى قرب من مكة، ثم نهض إلى أن نزل بـ (ذي طوى) فبات بها ليلة الأحد، لأربع خلون من ذي الحجة، وصلى بها الصبح، ثم اغتسل من يومه، ونهض إلى مكة فدخلها نهاراً من أعلاها، ثم سار، حتى دخل المسجد، وذلك ضحى[6]، فاستلم الركن[7] صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فرمل

---

(١) شرح النووي على صحيح مسلم، ٨/ ٤٢٢، وشرح الأبي، ٤/ ٢٤٤.
(٢) شرح النووي على صحيح مسلم، ٨/ ٤٢٢، وشرح الأبي، ٤/ ٢٤٤.
(٣) البخاري، الصحيح، فتح الباري ٨/ ١٠٤، ابن هشام، السيرة، ٤/ ٢٧٢، برواية ابن إسحاق، بإسناد حسن، ابن كثير، البداية والنهاية، ٥/ ١٢٥، بإسناد جيد.
(٤) ابن حنبل في مسنده، ٦/ ٢٩، حديث رقم: ٢٤٠٤٨، زاد المعاد في هَدْي خير العباد، ٢/ ١٠١.
(٥) زاد المعاد في هَدْي خير العباد، ٢/ ١٠١.
(٦) زاد المعاد في هَدْي خير العباد، ٢/ ١٠١، السيرة النبوية للندوي، ص٣٨٧.
(٧) مسلم، كتاب الحج باب حجة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ رقم ١٢١٨، زاد المعاد في هَدْي خير العباد، ٢/ ١٠١.

ثلاثاً[1]، ومشى ومشى أربعاً ثم نفذ إلى مقام إبراهيم[2] عَلَيْهِ السَّلَامُ. فقرأ: ﴿وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِلنَّاسِ وَأَمْنًا وَاتَّخِذُوا مِنْ مَقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى وَعَهِدْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَنْ طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ﴾ [البقرة: ١٢٥]. فجعل المقام بينه وبين البيت، وكان يقرأ في الركعتين قل هو الله أحد وقل يا أيها الكافرون، ثم رجع إلى الركن فاستلمه، ثم خرج من الباب إلى الصفا، فلما دنا من الصفا قرأ: ﴿إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِنْ شَعَائِرِ اللهِ فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوِ اعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَنْ يَطَّوَّفَ بِهِمَا وَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْرًا فَإِنَّ اللهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ١٥٨] وبدأ بما بدأ الله به، فبدأ بالصفا. فرقى عليه، حتى إذا رأى البيت فاستقبل القبلة فوحد الله وكبره. وقال: «**لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير، لا إله إلا الله وحده، أنجز وعده، ونصر عبده، وهزم الأحزاب وحده ثم دعا بين ذلك، قال مثل هذه ثلاث مرات، ثم نزل إلى المروة، حتى إذا انصبت[3] قدماه في بطن الوادي سعى، حتى إذا صعدتا[4] مشى أتى المروة، ففعل على المروة كما فعل على الصفا، حتى إذا كان آخر طوافه على المروة فقال: لو أني استقبلت من أمري ما استدبرت لم أسق الهدي، وجعلتها عمرة، فمن كان منكم ليس معه هدي فليحل، وليجعلها عمرة**»[5].

فقال سراقة بن مالك بن جعشم فقال: يا رسول الله! ألعامنا هذا أم للأبد؟ فشبك رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أصابعه واحدة في الأخرى. وقال: «**دخلت العمرة في الحج مرتين لا بل لأبد أبد**»[6]

وأقام بمكة أربعة أيام: يوم الأحد، والاثنين، والثلاثاء، والأربعاء فلما كان يوم الخميس ضحى، توجه بمن معه من المسلمين إلى منى ونزل بها، وصلى بها الظهر والعصر، والمغرب والعشاء والفجر ومكث قليلاً حتى طلعت الشمس، وأمر بقبة من شعر تضرب له بنمرة[7]، فسار رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ولا تشك

---

(١) الرمل: إسراع المشي مع تقارب الخطا.
(٢) نفذ إلى مقام ابراهيم: بلغه ماضياً في زحام.
(٣) انصبت قدماه: انحدرت.
(٤) صعدتا: ارتفعت قدماه عن بطن الوادي.
(٥) مسلم، كتاب الحج، باب حجة النبي رقم ١٢١٨.
(٦) مسلم، كتاب الحج، باب حجة النبي رقم ١٢١٨؛ صحيح السيرة النبوية، ص٦٥٩.
(٧) نمرة: موضع بجنب عرفات وليست من عرفات.

قريش إلا أنه واقف عند المشعر الحرام[1] ، كما كانت قريش تصنع في الجاهلية ، فأجاز[2] رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حتى أتى عرفه ، فوجد القبة قد ضربت له بنمرة . فنزل بها ، حتى إذا زاغت الشمس أمر بالقصواء ، فرحلت له ، فأتى بطن الوادي[3] ، فخطب الناس وقال: إن دماءكم وأموالكم حرام عليكم ، كحرمة يومكم هذا ، في شهركم هذا ، في بلدكم هذا ، ألا كل شيء من أمر الجاهلية تحت قدمي موضوع ، ودماء الجاهلية موضوعة ، وإن أول دم أضع من دمائنا دم ابن ربيعة بن الحارث ، كان مسترضعاً في بني سعد فقتلته هذيل وربا الجاهلية موضوع ، وأول ربا أضع ربانا ، ربا العباس بن عبد المطلب ، فإنه موضوع كله فاتقوا الله في النساء ، فإنكم أخذتموهن بأمان الله ، واستحللتم فروجهن بكلمة الله ، ولكم عليهن أن لا يوطئن في فرشكم أحداً تكرهونه[4] ، فإن فعلن ذلك فاضربوهن ضرباً غير مبرح[5] ، ولهن عليكم رزقهن وكسوتهن بالمعروف ، وقد تركت فيكم مالن تضلوا بعده إن اعتصمتم به ، كتاب الله وأنتم تسألون عني ، فما أنتم قائلون؟ قالوا: نشهد أنك بلغت وأديت ونصحت . فقال بإصبعه السبابة يرفعها إلى السماء وينكتها[6] إلى الناس: اللهم اشهد . اللهم اشهد ، ثلاث مرات[7] وكان الذي يصرخ في الناس بقول رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - وهو بعرفة - ربيعة بن أمية بن خَلَف ، ثم أذن ثم أقام فصلى الظهر ، ثم أقام فصلى العصر ، ولم يصل بينهما شيئاً ، ثم ركب رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، حتى أتى الموقف ، فجعل بطن ناقته القصواء إلى الصخرات[8] وجعل جبل المشاة بين يديه[9] ، واستقبل القبلة ، فلم يزل واقفاً حتى غربت الشمس ، وذهبت الصفرة قليلاً حتى

---

(١) المشعر الحرام: جبل بمزدلفة كانت قريش تقف عليه ، ولا تقف مع العرب في عرفات ولكن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وقف عرفات .

(٢) فأجاز: جاوز المزدلفة ولم يقف بها ، وإنما توجه إلى عرفات .

(٣) بطن الوادي: وادي عرنة ، وليست عرنة من أرض عرفات عند العلماء إلا مالكاً قال من عرفات .

(٤) أي لايجوز للمرأة أن تدخل أحداً إلى بيت زوجها من قريب أو بعيد أو امرأة إلا من يرضى عنه زوجها .

(٥) الضرب المبرح: الشديد الشاق .

(٦) ينكتها: يقلبها ويرددها إلى الناس مشيراً إليهم .

(٧) صحيح السيرة النبوية ، ص٦٦١ ؛ مسلم كتاب الحج ، رقم ١٢١٨ .

(٨) الصخرات: صخرات في أسفل جبل الرحمة ، وهو الجبل الذي بوسط أرض عرفات .

(٩) جبل المشاة: مجتمعهم . وقيل جبل المشاة: ومعناه طريقهم حيث تسلك الرجالة .

غاب القرص[1]، ولما فرغ رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من صلاته والتضرع والابتهال إلى غروب الشمس، وكان في دعائه رافعاً يديه إلى صدره، كاستطعام المسكين، يقول فيه: «**اللهم! إنك تسمع كلامي، وترى مكاني، وتعلم سري وعلانيتي، لا يخفى عليك شيء من أمري، أنا البائس الفقير، المستغيث المستجير، والوجل المشفق، المقر المعترف بذنوبي، أسألك مسألة المسكين وأبتهل إليك ابتهال المذنب الذليل، وأدعوك دعاء الخائف الضرير، من خضعت لك رقبته وفاضت لك عيناه، وذل جسده، ورغم أنفه لك، اللهم! لاتجعلني بدعائك رب شقيا، وكن بي رؤوفاً رحيماً، يا خير المسؤولين، ويا خير المعطين**»[2].

وهنالك أنزلت عليه: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلامَ دِينًا﴾ [المائدة: ٣]، ولما نزلت بكي عمر، فقال له النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**ما يبكيك؟**» قال: أبكاني أنا كنا في زيادة من ديننا، فأما إذا كمل فإنه لم يكمل شيء قط إلا نقص، فقال: «**صدقت**». فلما غربت الشمس أفاض من عرفة، وأردف أسامة بن زيد خلفه، وأفاض بالسكينة ضم إليه زمام ناقته، حتى أن رأسها ليصيب طرف رحله، وهو يقول: أيها الناس عليكم السكينة، وكان يلبي في مسيره ذلك، لايقطع التلبية حتى أتى المزدلفة، وأمر المؤذن بالأذان فأذن، ثم أقام، فصلى المغرب قبل حط الرحال وتبريك الجمال، فلما حطوا رحالهم، أمر، فأقيمت الصلاة ثم صلى العشاء، ثم نام، حتى أصبح، فلما طلع الفجر صلاها في أول الوقت، ثم ركب حتى أتى المشعر الحرام، فاستقبل القبلة، وأخذ في الدعاء والتضرع، والتكبير والتهليل والذكر، حتى أسفر جداً، وذلك قبل طلوع الشمس، ثم سار من مزدلفة، مردفاً للفضل بن عباس، وهو يلبي في مسيره، وأمر ابن عباس أن يلتقط له حصى الجمار سبع حصيات، فلما أتى بطن محسر، حرك ناقته، وأسرع السير، فإن هنالك أصاب أصحاب الفيل العذاب، حتى أتى منى، فأتى جمرة العقبة، فرماها راكباً بعد طلوع الشمس، وقطع التلبية، ثم رجع إلى منى، فخطب الناس خطبة بليغة، أعلمهم فيها بحرمة يوم النحر وتحريمه، وفضله عند الله، وحرمة مكة على جميع البلاد، وأمر بالسمع والطاعة لمن قادهم بكتاب الله، وأمر الناس بأخذ مناسكهم عنه، وأمر الناس ألا يرجعوا

(١) حتى غاب قرص الشمس: حتى غابت الشمس وذهبت الصفرة.
(٢) السيرة النبوية للندوي، ص٣٨٩.

بعده كفاراً ، يضرب بعضهم رقاب بعض وأمر بالتبليغ عنه [1] فعن أبي بكرة قال: خطبنا النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يوم النحر ، قال: «**إن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السماوات والأرض، السنة اثنا عشر شهراً، منها أربعة حرم، ثلاث متواليات، ذو القعدة وذو الحجة والمحرم، ورجب مُضَر الذي بين جمادي وشعبان**» .

وقال: «**أي شهر هذا؟**» قلنا: الله ورسوله أعلم ، فسكت حتى ظننا أنه سيسميه بغير اسمه ، قال: «**أليس ذا الحجة؟**» قلنا: بلي؟ قال: «**أي بلد هذا؟**» قلنا: الله ورسوله أعلم ، فسكت حتى ظننا أنه سيسميه بغير اسمه ، قال: «**أليست البلدة؟**» قلنا: بلي . قال: «**فأي يوم هذا؟**» قلنا: الله ورسوله أعلم . فسكت حتى ظننا أنه سيسمية بغير اسمه ، قال: «**أليس يوم النحر؟**» قلنا: بلي . قال: «**فإن دماءكم وأموالكم وأعراضكم عليكم حرام كحرمة يومكم هذا، في بلدكم هذا، في شهركم هذا. وستلقون ربكم، فيسألكم عن أعمالكم، ألا فلا ترجعوا بعدي ضلالاً يضرب بعضكم رقاب بعض. ألا هل بلغت؟ قالوا: نعم، قال: اللهم اشهد، فليبلغ الشاهد الغائب، فَرُبَّ مُبَلَّغ أوعى من سامع**» [2] .

وفي رواية أنه قال في تلك الخطبة: «**ألا لا يجني جَانٍ إلا على نفسه، ألا لا يجني جان على ولده، ولا مولود على والده، ألا إن الشيطان قد يئس أن يُعْبَد في بلدكم هذا أبداً، ولكن ستكون له طاعة فيما تحتقرون من أعمالكم، فسيرضى به**» [3] .

وأقام أيام التشريق بمني يؤدي المناسك ويعلم الشرائع ، ويذكر الله ، ويقيم سنن الهدي من ملة إبراهيم ، ويمحو آثار الشرك ومعالمها .

وقد خطب في بعض أيام التشريق أيضاً ، فقد روي أبو داود بإسناد حسن عن سَرَّاءِ بنت نَبْهَانَ قالت: خطبنا رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يوم الرءوس ، فقال: «**أليس هذا أوسط أيام التشريق**» . وكانت خطبته في هذا اليوم مثل خطبته يوم النحر ، ووقعت هذه الخطبة عقب نزول سورة النصر .

---

(١) صحيح السيرة النبوية ، ص٦٦٢ ، السيرة النبوية للندوي ، ص٣٨٩ .

(٢) البيهقي في سننه الكبرى ، ٥/ ١٦٦ ، حديث رقم: ٩٥٥٧ ، الطبراني في الأحاديث الطوال ١/ ٣٢٠ ، حديث رقم: ٦٠ ، السيرة النبوية الصحيحة ، ٢/ ٥٥٠ ؛ السيرة النبوية لأبي شهبة ، ٢/ ٥٧٨ .

(٣) أخرجه ابن ماجة ، ٢ / ١٤٧ ، أحمد ، ٣ / ٤٩٨ - ٤٩٩ ، السيرة النبوية الصحيحة ، ٢/ ٥٥٠ ؛ السيرة النبوية لأبي شهبة ، ٢/ ٥٧٨ .

وفي يوم النَّفْر الثاني - الثالث عشر من ذي الحجة - نفر النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من مني، فنزل بخيف بني كِنَانة من الأبْطَح، وأقام هناك بقية يومه ذلك، وليلته، وصلي هناك الظهر والعصر والمغرب والعشاء، ثم رقد رقدة، ثم ركب إلى البيت، فطاف به طواف الوداع، وأمر به الناس [1].

وقد تكررت خطب الحبيب محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في حجة الوداع:

فقد خطب الناس بمنى خطبتين: خطبة يوم النحر، وخطبة ثانية في ثاني يوم النحر [2]، وهو يوم النفر الأول، وهي تأكيد لبعض ما جاء في خطبتي عرفة، ويوم النحر بمنى - وهذا التكرار كان أمراً لابد منه لحاجة المسلمين، فهي الحجة الوحيدة التي حجّها الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وقد عزّ فيها الإسلام والمسلمون، وأصبحت كلمتهم هي النافذة في الجزيرة كلها، كما كانت الوداع الأخير فما أشد حاجة المسلمين في هذا المشهد العظيم إلى التذكير والنصح والتوصية وإلى تكرار القول والتأكيد عليه حتى يعوه ويحفظوه ولاينسوه، وإلى تقريرهم بإبلاغ الرسالة، وأداء الأمانة [3].

وقد وافى علي بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عند عودته من اليمن، رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في الحج، فحج معه [4]، وقد اشتكى بعض الجند عليّا عند النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنه اشتد في معاملتهم، وأنه استرجع منهم حللا كان نائبه على اليمن قد وزعها عليهم، فأوضح لهم النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في غدير خم قرب الجحفة مكانة عليّ وفضله لينتهوا عن الشكوى [5]. وقال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «من كنت مولاه فعليّ مولاه» [6].

وفي طريق العودة من حجة الوداع خطب الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الناس في غدير خُمّ قريباً من الجحفة في اليوم الثامن عشر من ذي الحجة، وقد جاء في هذه

---

(١) مسلم، كتاب الحج، رقم ١٢١٨؛ صحيح السيرة النبوية، ص٦٦٣، السيرة النبوية للندوي، ص٣٩٠.

(٢) السيرة النبوية للندوي، ص٣٩٠.

(٣) السيرة النبوية لأبي شهبة، ٢/ ٥٧٩؛ المستفاد من قصص القرآن، ٢/ ٥١٥.

(٤) ابن هشام، السيرة، ٤/ ٦٠٢ - ٦٠٣، ابن كثير، البداية، ٥/ ٢٠٩.

(٥) ابن كثير، البداية، ٥/ ٢١٢.

(٦) أحمد، فضائل الصحابة، ٢/ ٥٩٤، رقم ١٠١٠، المسند، ٤/ ١٦٤، وأخرجه النسائي في السنن الكبرى، كما في تحفة الأشراف، ٣/ ١٣، وابن ماجه، ١/ ٤٤، والترمذي، ٥/ ٦٣.

الخطبة: «**أما بعد، ألا أيها الناس، فإنما أنا بشر يوشك أن يأتي رسول ربي فأجيب وأنا تارك فيكم ثقلين، أولهما كتاب الله فيه الهدى والنور، فخذوا بكتاب الله. واستمسكوا به، فحث على كتاب الله ورغب فيه، ثم قال: وأهل بيتي، أذكركم الله في أهل بيتي، أذكركم الله في أهل بيتي، أذكركم الله في أهل بيتي**»[(١)].

وقد تأخر رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حتى أكمل رمي أيام التشريق الثلاثة، ثم نهض إلى مكة، فطاف للوداع ليلاً سحراً، وأمر الناس بالرحيل، وتوجه إلى المدينة[(٢)].

ولما أتى رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ذا الحليفة بات بها، فلما رأى المدينة كبر ثلاث مرات، وقال: لا إله إلا الله وحده، لا شريك له، له الملك وله الحمد، وهو على كل شيء قدير، آيبون تائبون، عابدون، ساجدون، لربنا حامدون صدق الله وعده، نصر عبده، وهزم الأحزاب وحده، ثم دخلها نهارا[(٣)].

الدروس والعبر والفوائد من حجة الوداع:

لقد جاءت حجته صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حافلة بالأحكام والمناسك والوصايا، أفرد لها العلماء كتبا خاصة بها[(٤)]، واستنبطوا منها الكثير من أحكام المناسك مما تزخر به كتب الفقه والحديث وشروحه[(٥)].

- استحباب نزول الحاج إلى عرفات بعد زوال الشمس إن تيسر ذلك.

- وصلت الأمة الإسلامية في السنة العاشرة مرحلة من النضج متقدمة وكان ذلك يقتضي لمسات أخيرة، فوسع صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في العام التاسع والعاشر من الهجرة دائرة التلقي المباشر من خلال استقباله الوفود ومن خلال رحلة الحج، فأوجد قاعدة عريضة تحمل دعوته وقد تلقت عنه مباشرة، وكان لذلك أكبر الأثر

---

(١) مسلم، كتاب فضائل الصحابة، باب فضل علي بن أبي طالب، رقم ٢٠٤٨، السيرة النبوية الصحيحة، ٢/ ٥٥١، السيرة النبوية لأبي شهبة، ٢/ ٥٨١.

(٢) السيرة النبوية للندوي، ص٣٩٠.

(٣) ابن القيم، زاد المعاد، ١/ ٢٤٩، السيرة النبوية - دروس وعبر في تربية الأمة وبناء الدولة، ٢/ ٦٠٢.

(٤) انظر مثلا ابن كثير، البداية، ٥/ ٢٢٣ - ٢٣٣.

(٥) ابن القيم، زاد المعاد، ٢/ ١٠١ - ٣٢٤، وانظر مسلم، الصحيح بشرح النووي، ٨/ ١٧٠.

في أن تبقى رحى الإسلام دائرة وإلى الأبد[1] ، ففي حجة الوداع كانت اللمسات الأخيرة في تربية الأفراد والمجتمع على كتاب الله وسنة رسوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ .

- استحباب خطبة الإمام بالحجاج بعرفات ، يبين فيها للناس ما يحتاجون إليه ، ويعتني ببيان التوحيد ، وأصول الدين ، ويحذر فيها من الشرك والبدع والمعاصي ، ويوصي الناس بالعمل بالكتاب والسنة .

وقد ثبت أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خطب في حجة الوداع ثلاث خطب: خطبة يوم عرفة ، والخطبة الثانية يوم النحر في منى ، والخطبة الثالثة في منى يوم الثاني عشر من ذي الحجة . ومذهب الشافعي أن الإمام يخطب يوم السابع من ذي الحجة كذلك[2] ، ويعلم الإمام الناس في كل خطبة ما يحتاجون إليه إلى الخطبة لأخرى .

- تأكيد غلظ تحريم الدماء ، والأعراض ، والأموال ، والأبشار الجلدية .

- استخدام ضرب الأمثال وإلحاق النظير بالنظير ؛ لقوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**كحرمة يومكم هذا في شهركم هذا في بلدكم هذا**» .

- إبطال أفعال الجاهلية ، وربا الجاهلية ، وأنه لا قصاص في قتلى الجاهلية .

- فقد أشار صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلى أهمية قطع المسلم بعلاقته بالجاهلية ، أوثانها ، وثاراتها ، ورباها ، وغير ذلك ولم يكن حديثه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مجرد توصية بل كان قراراً أعلن عنه للملأ كله لأولئك الذين كانوا من حوله والأمم التي ستأتي من بعده وهذه هي صيغة القرار: ألا إن كل شيء من أمر الجاهلية ، تحت قدمي موضوع ، دماء الجاهلية موضوعة . . . وربا الجاهلية موضوع[3] ، لأن الحياة الجديدة التي يحياها المسلم بعد إسلامه حياة لاصلة لها برجس الماضي وأدرانه[4] .

وقد حذر صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من الذنوب والخطايا والآثام ، ماظهر منها ومابطن ، لأن الذنوب والخطايا تفعل بالفرد مالايفعله العدو بعدوه فهي سبب مصائبه في الدنيا: ﴿ **وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ** ﴾ [الشورى: ٣٠] فترديه في نار جهنم في الآخرة ، وتفعل في المجتمعات مالايفعله السيف ، وأعلن

---

(١) فقه السيرة للبوطي ، ص٣٣١ .
(٢) فتح الملك المعبود في تكملة المنهل المورود ، ٢/ ٢٠ .
(٣) فقه السيرة للبوطي ، ص٣٣١ .
(٤) محمد قلعجي ، قراءة سياسية للسيرة النبوية ، ص٣٠٣ .

رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنه لا يقصد بالخطايا العودة إلى عبادة الأصنام، لأن العقول التي تفتحت على التوحيد ترفض أن تعود إلى الشرك الظاهر، ولكن الشيطان لايأس من أن يجد طريقه إليها من ثغرات الخطايا والذنوب، حتى تردى صاحبها في المهاوي[1].

- إن الإمام ومن يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر يجب أن يبدأ بنفسه وأهله؛ لأنه أقرب لقبول قوله، وطيب نفس من قرب عهده بالإسلام فقد خطب صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فقال: «**إن دماءكم وأموالكم حرام عليكم، كحرمة يومكم هذا، في شهركم هذا، في بلدكم هذا، ألا كل شيء من أمر الجاهلية تحت قدمي موضوع، ودماء الجاهلية موضوعة، وإن أول دم أضع من دمائنا دم ابن ربيعة بن الحارث، كان مسترضعا في بني سعد فقتلته هذيل، وربا الجاهلية موضوع، وأول ربا أضع ربانا، ربا العباس بن عبد المطلب، فإنه موضوع كله**»[2].

- المساواة بين البشر: فقد قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: لافضل لعربي على عجمي، ولالعجمي على عربي ولا لأبيض على أسود، ولا لأسود على أبيض إلا بالتقوى، الناس من آدم وآدم من تراب[3]، حيث حدد أن أساس التفاضل لاعبرة فيه لجنس، ولالون، ولاوطن، ولاقومية، ... وإنما أساس التفاضل قيمة خلقية راقية ترفع مكانة الإنسان إلى مقامات رفيعة جداً[4].

- الموضوع من الربا هو الزائد على رأس المال، أما رأس المال فلصاحبه. فقد قال الحبيب محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "... وربا الجاهلية موضوع، وأول ربا أضع ربانا، ربا العباس بن عبد المطلب، فإنه موضوع كله[5].

- الأخوة في الله هي العروة الوثقى التي تربط بين جميع المسلمين: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ فقد قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**أيها الناس اسمعوا قولي واعقلوه، تعلمن أن كل مسلم أخ للمسلم، وأن المسلمين أخوة فلا يحل لامرئ من أخيه إلا ما أعطاه عن طيب نفس منه، فلا تظلمن أنفسكم**». وقال: «**إن دماءكم وأموالكم وأعراضكم عليكم حرام، كحرمة يومكم هذا في بلدكم هذا حتى**

(١) قراءة سياسية للسيرة النبوية، ص٣٠٣.
(٢) صحيح السيرة النبوية، ص٦٦١، مسلم كتاب الحج، رقم ١٢١٨.
(٣) مسند أحمد، ٣/ ٤١١، إسناده صحيح.
(٤) عرجون، الموسوعة في سماحة الإسلام، ٢/ ٨٧٦.
(٥) صحيح السيرة النبوية، ص٦٦١، مسلم كتاب الحج، رقم ١٢١٨.

تلقوا ربكم فيسألكم عن أعمالكم، ألا فلا ترجعوا بعدي ضلالاً يضرب بعضكم رقاب بعض»[1].

- مراعاة حق النساء، ومعاشرتهن بالمعروف، ووجوب نفقة الزوجة وكسوتها، وجواز تأديبها إذا أتت بما يقتضي التأديب لكن بالشروط والضوابط التي جاءت بالكتاب والسنة، وأن لا يحصل منكر من أجل ذلك التأديب فقد قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**فاتقوا الله في النساء فإنكم أخذتموهن بأمان الله، واستحللتم فروجهن بكلمة الله، ولكم عليهن ألا يوطئن فرشكم أحدًا تكرهونه**[2] **فإن فعلن ذلك فاضربوهن ضربا غير مبرح**[3]**، ولهن عليكم رزقهن وكسوتهن بالمعروف**»[4].

- الوقوف بجانب الضعيف حتى لايكون هذا الضعف ثغرة في البناء الإجتماعي، فأوصى صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في خطبته بالمرأة والرقيق على أنهما نموذجان عن الضعفاء[5]، فقد شدّد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في وصيته بالإحسان إلى الضعفاء[6]، وأوصى خيراً بالنساء، وأكد في كلمة مختصرة جامعة القضاء على الظلم البائد للمرأة في الجاهلية، وتثبيت ضمانات حقوقها وكرامتها الإنسانية التي تضمنتها أحكام الشريعة الإسلامية[7].

- التعاون مع الدولة الإسلامية على تطبيق أحكام الإسلام، والالتزام بشرع الله، ولو كان الحاكم عبداً حبشياً، فإن في ذلك الصلاح والفلاح، والنجاة في الدنيا والآخرة[8]، فقد بين صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ العلاقة بين الحاكم والمحكوم بأنها تعتمد على السمع والطاعة مادام الرئيس يحكم بكتاب الله وسنة رسوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فإذا مال عنهما فلا سمع ولاطاعة، فالحاكم أمين من قبل المسلمين على تنفيذ

---

(١) مسلم، كتاب الحج، رقم ١٢١٨.
(٢) أي لا يجوز للمرأة أن تدخل أحدا إلى بيت زوجها من قريب أو بعيد أو امرأة إلا من يرضى عنه زوجها.
(٣) الضرب المبرح: الشديد الشاق.
(٤) صحيح السيرة النبوية، ص٦٦١، مسلم كتاب الحج، رقم ١٢١٨.
(٥) قراءة سياسية للسيرة النبوية، ص٣٠٤.
(٦) دولة الرسول من التكوين إلى التمكين، ص٥٧٥.
(٧) فقه السيرة للبوطي، ص٣٣٢.
(٨) دولة الرسول من التكوين إلى التمكين، ص٥٧٦.

حكم الله تعالى[1].

- الوصية بكتاب الله تعالى وسنة نبيه ﷺ[2]:

فلقد أوضح الحبيب محمد ﷺ الطريقة المثلى لحل مشاكل المسلمين التي قد تعترض طريقهم في الرجوع إلى مصدرين لاثالث لهما، ضمن لهم بعد الاعتصام بهما، الأمان من كل شقاء وضلال، وهما: كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، وإنك لتجده يتقدم بهذا التعهد والضمان إلى جميع الأجيال المتعاقبة من بعده، ليبين للناس أن صلاحية التمسك بهذين الدليلين ليس وقفاً على عصر دون آخر، وأنه لاينبغي أن يكون لأيّ تطور حضاري أوعرف زمني أي سلطان أو تغلب عليهما[3].

لقد وصف ﷺ الداء والدواء ووضع العلاج لكل المشكلات بالالتزام التام بما جاء من أحكام في كتاب الله وسنة رسوله ﷺ: «**تركت فيكم ما إن تمسكتم به لن تضلوا بعدي أبداً كتاب الله وسنتي**». هذا هو العلاج الدائم وقد كرر ﷺ نداءه للبشرية عامة عبر الأزمنة، والأمكنة بوجوب الاهتداء بالكتاب والسنة في حل جميع المشكلات التي تواجه البشرية، فإن الإعتصام بهما يجنب الناس من الضلال، ويهديهم إلى التي هي أقوم في الحاضر والمستقبل، لقد اجتازت تعاليم رسول الله ﷺ وهديه حدود الجزيرة، واخترقت حواجز الزمن، وأسوار القرون، وظل يتردد صداها حتى يوم الناس هذا، وإلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، فلم يكن يخاطب سامعيه فيقول لهم: «**أيها المؤمنون، أيها المسلمون أيها الحجاج بل كان يقول لهم يا أيها الناس**» وقد كرر نداءه إلى الناس كافة مرات متعددة دون أن يخصصه بجنس أو بزمان أو مكان أو لون، فقد بعثه الله للناس كافة وأرسله رحمة للعالمين[4].

- قوله: «**لتأخذوا عني مناسككم فإني لا أدري لعلي لا أحج بعد حجتي هذه**» ففي ذلك لام الأمر، والمعنى خذوا مناسككم، وهكذا وقع في رواية غير

---

(١) فقه السيرة للبوطي، ص٣٣٣.

(٢) سعيد بن علي بن وهف القحطاني، وداع الرسول لأمته دروس، وصايا، وعبر، وعظات، ص ٢٥.

(٣) فقه السيرة للبوطي، ص٣٣٣.

(٤) أحمد محمد باشميل، الجانب السياسي في حياة الرسول، ص١٣١.

مسلم، وتقديره: هذه الأمور التي أتيت بها في حجتي من الأقوال، والأفعال، والهيئات هي أمور الحج وصفته وهي مناسككم فخذوها عني واقبلوها، واحفظوها واعملوا بها، وعلموها الناس، وهذا الحديث أصل عظيم في مناسك الحج، فهو كقوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**صلوا كما رأيتموني أصلي**»[1].

فقد علّم رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ صحابته الكرام مناسك الحج بصورة عملية، بأن قام بها وباشرها فعلاً، ولم يكتف بأن يعلمها لهم قولاً، ولذلك قال لهم: «**خذوا عني مناسككم**»[2]، وعلى هذا فيستحسن من الدعاة وهم يعلمون الناس معاني الإسلام أن يعلموهم هذه المعاني، والمطلوبات الشرعية، أو بعضها في الأقل بصورة عملية كالوضوء، والصلاة، وتعليم قراءة القرآن بصورة سليمة[3].

- وفي قوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**لعلي لا أحج بعد حجتي هذه**» إشارة إلى توديعهم، وإعلامهم بقرب وفاته صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وحثهم على الأخذ عنه، وانتهاز الفرصة وملازمته، وبهذا سميت حجة الوداع.

- الحث على تبليغ العلم ونشره، وأن الفهم ليس شرطاً في الأداء، وأنه قد يأتي في الآخر من يكون أفهم ممن تقدم ولكن بقلة، وأن الأفضل أن يكون الخطيب على مكان مرتفع؛ ليكون أبلغ في سماع الناس ورؤيتهم له، فقد قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «... **فليبلغ الشاهدُ الغائبَ**»[4] وفي هذا توجيه نبوي كريم لكي تعم الفائدة أكبر عدد ممكن من الناس؛ فهذا من باب التعاون على الخير، ولأن الغائب قد يكون أوعى للعلم وأكثر فهمًا له من الحاضر الذي سمع، وعلى الدعاة والعلماء عندما يلقون درسا أو محاضرة لإخوانهم أو لعامة الناس فمن المستحسن أن يقولوا للحاضرين: فليبلغ الحاضر منكم الغائب بما سمعه[5].

- الأمر بطاعة ولي الأمر مادام يقود الناس بكتاب الله تعالى، وإذا ظهرت منه بعض المعاصي والمنكرات، وُعِظَ وَذُكِّر بالله وخُوِّف به لكن بالحكمة والأسلوب الحسن.

---

(١) البخاري برقم ٧٢٤٦.
(٢) السيرة النبوية الصحيحة، ٢/ ٥٤٩؛ مسلم، ٢/ ٩٤٢، رقم ١٢٩٧.
(٣) المستفاد من قصص القرآن، ٢/ ٥١٨.
(٤) السيرة النبوية الصحيحة، ٢/ ٥٤٩؛ مسلم، ٢/ ٩٤٢، رقم ١٢٩٧.
(٥) المستفاد من قصص القرآن للدعوة والدعاة، ٢/ ٥١٨.

- معجزة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الظاهرة الدالة على صدقه، وذلك بسماع الناس لخطبته يوم النحر وهم في منازلهم[1] فقد فتح الله لأسماعهم كلهم لها.

- الأضحية سنه مؤكدة على الصحيح من أقوال أهل العلم، وهي في حق الحاج وغير الحاج فلا يجزئ عنها الهدي، وإنما هي سنة مستقلة؛ لأنه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بعد أن خطب الناس بمنى انقلب فذبح كبشين أملحين[2] وهذا غير الهدايا التي نحرها بيده وأشرك عليّاً في الهدي وأمره بنحر الباقي من البدن[3].

- حرص النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على نفع أمته، والنصح لهم في الحياة، وبعد الممات؛ ولهذا صلى على شهداء أحد بعد ثمان سنوات، وزار أهل البقيع ودعا لهم، وأوصى الأحياء ونصحهم، ووعظهم وأمرهم ونهاهم فما ترك خيراً إلا دلهم عليه، ولا شرًا إلا حذرهم منه[4].

- التحذير من فتنة زهرة الدنيا لمن فتحت عليه، فينبغي له أن يحذر سوء عاقبتها، ولا يطمئن إلى زخارفها، ولا ينافس غيره فيها، ويستخدم ما عنده منها في طاعة الله تعالى[5].

بعث أسامة بن زيد إلى أرض فلسطين:

عاد النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلى المدينة بعد أن أدى حجة الوداع مع من صحبه من المسلمين ومن شهده معه من أهل الموقف، فأقام بالمدينة بقية ذي الحجة من السنة العاشرة، والمحرم وصفر من السنة الحادية عشرة، وضرب على الناس بعثا إلى الشام، وأمّر عليهم أسامة بن زيد بن حارثة مولاه[6]، وأمره أن يوطيء الخيل

---

(١) البخاري، ومسلم برقم، ١٦٧٩.

(٢) انظر: فتح الباري، ٣/ ٥٧٤، ٥٧٧، وشرح النووي، ٨/ ٤٢٢ - ٤٣٤ و٩/ ٥١ - ٥٢ و١١/ ١٨٢، وفتح الملك المعبود في تكملة المنهل المورود شرح سنن أبي داود ٢/ ٢٠ و٢/ ٥٤، ٢/ ٩٩ - ٢٠٦.

(٣) سعيد بن علي بن وهف القحطاني، وداع الرسول لأمته دروس، وصايا، وعبر، وعظات، ص ٢٦.

(٤) سعيد بن علي بن وهف القحطاني، وداع الرسول لأمته دروس، وصايا، وعبر، وعظات، ص ٢٧.

(٥) فتح الباري ١١/ ٢٤٥، سعيد بن علي بن وهف القحطاني، وداع الرسول لأمته دروس، وصايا، وعبر، وعظات، ص ٢٥.

(٦) أحمد، الفتح الرباني، ٢١/ ٢٢٠ - ٢٢٣، الواقدي، مغازي، ٣/ ١١١٧ - ١١١٨، ابن سعد، الطبقات، ٢/ ٢٤٨.

تخوم البلقاء والداروم من أرض فلسطين فتجهز الناس [1].

وذكر المؤرخون أن هذه السرية أنها كانت لتأديب القبائل وأهل القرى في تلك المنطقة الذين شاركوا في غزوة مؤتة ضدّ المسلمين، [2].

وربّما يكون ذلك أحد أسباب بعث هذه السرية، ولكن لا يمكن بأي حال من الأحوال حصرها بهذا السبب وحده، فنظر النّبيّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أبعد من مجرّد الانتقام وإدراك التأثر، لأنّ استراتيجيته صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كقائد للأمّة الإسلامية، وبشيراً ونذيراً للناس كافّة، كانت بعيدة المدى جداً، وقضايا التّأثر والانتقام من القضايا التي عفا عليها الزمن في الإسلام، وأصبحت من أدران الجاهلية التي قضى عليها الإسلام، وتركها المسلمون وراءهم، وإنّما كانت تلك السرية تدخل ضمن نطاق التمهيد الذي بدأه رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ للفتوح في الشام، فكان لا يمكن القفز من على تلك المناطق التي لم تخضع لسلطان المسلمين بعد، والتوغل في مناطق الشام الداخلية قبل تمهيد الطريق إليها[3].

وقال ابن سعد: "أَمَرَ رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الناس بالتّهيّؤ لغزو الروم، فلمّا كان من الغد دعا أُسامة بن زيد فقال: سِر إلى موضع مقتل أبيك، فأوطئهم الخيل، فقد ولّيتك هذا الجيش، فَأَغِر صباحاً على أهل بُنى، وحرّق عليهم، وأسرِع السّير تسبق الأخبار، فإن ظفرك الله فأقلل اللبث فيهم، وخُذ معك الأدلاّء، وقدم العيون والطلائع أمامك"[4].

وقال الواقدي: "فلمّا أصبح يوم الخميس لليلةٍ بقيت من صفر، عقد له رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بيده لواءً ثُمَّ قال: «**يا أُسامة! اغزُ باسم الله، في سبيل الله، فقاتلوا مَن كفر، اغزوا ولا تغدروا، ولا تقتلوا وليداً ولا امرأة، ولا تمنّوا لقاء العدوّ، فإنّكم لا تدرون لعلّكم تبتلون بهم، ولكن قولوا: اللهمّ اكفناهم، واكفف بأسهم عنّا، فإن لقوكم قد أجلبوا وصيّحوا، فعليكم بالسكينة والصّمت، ولا تنازعوا ولا تفشلوا فتذهب ريحكم، وقولوا: اللهمّ نحن عبادك**

(١) ابن هشام، السيرة، ٤/ ٦٠٦.

(٢) البيهقي، دلائل ٧/ ٢٠٠ - ٢٠١، ابن سعد، طبقات، ٢/ ١٩٠ - ١٩١.

(٣) بريك بن محمد بريك أبو مايلة العمري، غزوة مؤتة والسرايا والبعوث النبوية الشمالية، ص٤٦٩.

(٤) ابن سعد، طبقات ٢/ ١٩٠-١٩١، المغازي، ٣/ ١١١١- ١١٢٥. عيون الأثر٢/ ٣٥٥-٣٥٦، السيرة الحلبية، ٣/ ٢٢٧ - ٢٢٨.

وهم عبادك، نواصينا ونواصيهم بيدك، وإنّما تغلبهم أنت، واعلموا أنّ الجنّة تحت البارقة» [1].

وخرج أُسامة بن زيد رضي الله تعالى عنهما: "بلوائه معقوداً، فدفعه إلى بريدة بن الحصيب الأسلمي، وعسكر بالجرف، فلم يبق أحد من وجوه المهاجرين الأوّلين، والأنصار، إلاّ انتدب في تلك الغزوة، فيهم أبو بكر الصّدّيق، وعمر بن الخطاب، وأبو عبيدة بن الجرّاح، وسعد بن أبي وقاص، وسعيد بن زيد، وقتادة بن النعمان، وسلمة بن أسلم بن حريش، فتكلّم قوم، وقالوا: يستعمل هذا الغلام على المهاجرين الأوّلين - فغضب رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ غضباً شديداً - فخرج وقد عصب على رأسه عصابة وعليه قطيفة، فصعد المنبر فحمد الله وأثنى عليه، ثُمّ قال: "قد بلغني أنّكم قلتم في أسامة" وإن تطعنوا في إمارته، فقد كنتم تطعنون في إمارة أبيه من قبل، وايم الله إن كان لخليقاً للإمارة، وإن كان لمن أحبّ الناس إليّ، وإنّ هذا لمن أحبّ الناس إليّ بعده" [2].

وإنّما طعن من طعن في إمارتهما لأنّهما كانا من الموالي، وكانت العرب لا ترى تأمير الموالي وتستنكف عن اتباعهم كل الاستنكاف، فلمّا جاء الله عز وجل بالإسلام، ورفع قدْرَ مَن لم يكن عندهم قدر بالمسابقة، والهِجرة، والعلم، والتُّقى، عرف حقّهم المحفوظون من أهل الدين، فأمّا المرتهنون بالعادة، والممتحنون بحب الرياسة من الأعراب ورؤساء القبائل، فلم يزل يختلج في صدورهم شيء من ذلك، لا سيّما أهل النفاق، فإنّهم كانوا يسارعون إلى الطعن وشدّة النكير عليه" [3].

وربّما كان ذلك قصد المنافقين في الطّعن على أُسامة بن زيد، وأبيه زيد من قبل - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، أمّا مَن طَعَنَ في تأميرهما من الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، فلم يكن كذلك، لأنّ الإسلام قد أذهب عنهم عبية الجاهلية الأولى التي مكث النّبيّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ دهراً وهو يربيهم على نفض أدرانها، والانسلاخ عن أوظارها، وإلقاء نفاياتها البغيضة بعيداً عنهم، وعن مجتمعهم الذي تأسّس بالإسلام، وبُني بتعاليمه، فارتفعوا بها عالياً وعن تلك الشوائب السفلى، فما كان لهم بعد ذلك

---

(١) المغازي، ٣/ ١١١٧ - ١١١٨.

(٢) البخاري، الصّحيح ٥/ ١٤٥.

(٣) البنا، الفتح الرباني ٢١/ ٢٢٢، والزرقاني، إرشاد الساري، ٦/ ١٢٧، وشرح المواهب ٣/ ١٠٩.

كلـه ، وبخاصّـة بعد نضوج ثمر الغرس الذي غرسه فيهم المصطفى صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قـبل ثلاثـةٍ وعـشرين عاماً مضت ، أن يتعلّقوا بشيءٍ من تلك الشوائب والأدران المتنتنة من دعاوى الجاهلية ، وفخرها بالأنساب[1] .

وإنّمـا طَعَـن مَـن طَعَـن مـنهم في تـأمير أُسامة لِصِغَر سِنِّه ، فقد ورد أنّ النّبيّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ استعمله وهو ابن ثماني عشرة سنة "[2] .

وكذلك لوجود بعض كبار الصحابة وأهل الفضل منهم تحت إمرته ، فكأنّهم رأوا أنّه كيف يتأمّر عليهم وهم أفضل سابقة ، وأكبر سنّاً ، وأقرب موقعاً من النّبيّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، كأبي بكر الصّدّيق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ، وأبي عبيدة بن الجرّاح رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ .

وهـنا قـد يـسأل سـائل: إذاً لـماذا أمّـره الـنّبيّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على مثل هؤلاء السابقين؟

والجـواب هو حول إدراك ثأره ، ومن ذلك بيان فضله ومنقبته العظيمة بمحبة الـنّبيّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لـه ، استمراراً لحبه أباه من قبل والأهمّ من ذلك كلّه ، هو أن صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كـان بَعَـثَ زيـداً أميراً على عِدَّة سرايا وأعظمها على جيش مؤتة ، وسار تحت رايته فيها نجباء الصحابة ، وكان خليقاً بذلك لسوابقه وفضله وقربه من الـنّبيّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ثُـمَّ أَمَّـر أُسـامة في مرضـه علـى جيش فيه جماعة من مشيخة الـصحابة وفـضلائهم ، وكأنّـه رأى فـيه ذلك ، سوى ما توسَّم فيه من النجابة أن يُمَهـد الأرض ، وتوطـئة لمن يلي الأمر بعده لئلاّ ينْزع أحد يداً من طاعة ، وليعلم كلٌّ منهم أنّ العادّة الجاهلية قد عميت مسالكها ، وخفيت معالمها "[3] .

والـذي حـدث أن أُسامة بن زيد – رضي الله تعالى عنهما – عسكر بجيشه في الجـرف[4] ، الـذي كان بمثابة قاعدة عسكرية للمسلمين وبخاصّة للجيوش المنطلقة

---

(١) بـريك بـن محمـد بـريك أبو مايلة العمري ، غزوة مؤتة والسرايا والبعوث النبوية الشمالية ، ص٤٧٣ .

(٢) ابن سعد ، طبقات ٤/ ٦٦ .

(٣) البنا ، الفتح الرباني ٢١/ ٢٢٢ ، الزرقاني ، إرشاد ٦/ ١٢٧ ، شرح المواهب ٣/ ١٠٩ .

(٤) الجُـرْف – بالضم ثُمَّ السكون – ما تجرَّفته السيول فأكلته من الأرض ، وهو موضع على ثلاثة أميال من المدينة ، بـه كانـت أمـوال لعمر بن الخطّاب رضي الله تعالى عنه ، ولأهل المدينة . وقـيل: سُـمِّيَ الجُـرْف ، لأنَّ تُـبّعاً مـرَّ به ، فقال: هذا جرف الأرض ، وكان يُسَمَّى: العرض ، وكـان الجـرف في عهد النَّبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بمثابة معسكر للجيوش النبوية . والجُرف اليوم من أحـياء المدينـة الـشمالية الكـبيرة ، يمـتد مـن مـزارع العـيون شـرقاً ، حتَّـى طريق المدينة تبوك غرباً .انظر: ياقوت ، معجم البلدان ، ١/ ١٢٨ ، السمهودي ، وفاء ، ٤/ ١١٧٥ .

إلى شمال المدينة .

وبلغ الاهتمام من رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ لبعث تلك السرية ، أنه صار يُردد وهو في الرمق الأخير بأبي هو وأمي صلوات الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم: «**انفذوا جيش أسامة، انفذوا جيش أسامة**» [1] .

وذلك يدل على الأهمية القصوى ، والاستراتيجية التي كان يُمثِّلها إرسال ذلك الجيش بالنسبة للمسلمين ، وهو الأمر الذي حدا بالصّدِّيق رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ رغم المخاطر التي كانت تُحيط بالمسلمين داخلياً وخارجياً ، أن يُسارع في بعث السرية ، ويُصرّ على ذلك رغم معارضة كبار الصحابة - رضي الله تعالى عنهم - له .

وتوفي الحبيب المصطفى صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ ، فَقِيدُ الأُمّة الإسلامية ، بل فَقِيد العالم بأسره ، - صلوات الله عليه وعلى آله وسلم ، توفي وأسامة معسكرٌ بجيشه في الجرف ، وذُهِل المسلمون في المدينة .

ورجع المسلمون الذين عسكروا بالجرف ودخلوا إلى المدينة ، ودخل بريدة ابن الحصيب بلواء أُسامة معقوداً حتّى أتى باب رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ فغرزه عنده " [2] .

ولم يقدر لهذا البعث أن يخرج في عهد النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ ، لوفاته صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ مما أخر خروج الجيش إلى ما بعد بيعة الصديق رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ [3] .

* * * * *

(١) ابن سعد ، طبقات ٤/ ٦٧ .

(٢) ابن سعد ، طبقات ٢/ ١٩٠ - ١٩١ ، المغازي ، ٣/ ١١١١ - ١١٢٥ ، عيون الأثر ، ٢/ ٣٥٥ - ٣٥٦ ، السيرة الحلبية ، ٣/ ٢٢٧ - ٢٢٨ ، شرح المواهب ، ٣/ ١٠٨ - ١٠٩ .

(٣) البخاري ، الصحيح ، فتح الباري ، ٨/ ١٥٢ حديث ٤٤٦٩ .